اسامة بن مرشد بن علي

ابن المقلد بن نصر بن منقذ بن نصر بن هاشم ـ ابو المظفر الكناني ، الملقب بمؤيد الدولة

(من تاريخ دمشق لابن عساكر)

له يد بيضاء في الادب والكتابة والشعر .
ذكر لي انه ولد سنة ثمان وثمانين واربعمئة ، وقدم دمشق سنة اثنتين وثلاثين وخمسمئة ، وخدم بها السلطان وقرب منه ؛ وكان فارسا شجاعا ، ثم خرج الى مصر فاقام بها مدة ، ثم رجع الى الشام وسكن حماة ؛ واجتمعت به بدمشق ، وانشدني قصائد من شعره سنة ثمان وخمسين وخمسمئة .

قال لي ابو عبد الله محمد بن الحسن بن الملحي : الامير مؤيد الدولة اسامة بن مرشد بن منقذ شاعر اهل الدهر ؛ مالك عنان النظم والنثر ، متصرف في معانيه ، لاحق بطبقة ابيه ، ليس يستقصى وصفه بمعان ، ولايعبر عن شرحها بلسان ، قصائده الطوال لايفرق بينها وبين شعر ابن الوليد (١) ؛ غير محتفل في طولها ، ولايتعثر لفظه العالي في شيء من فضولها ، والمقطعات فاحلى من الشهد ، والذ من النوم بعد طول السهد ، في كل معنى غريب وشرح عجيب .
كتب على حائط دار سكنها بالموصل :

دار سكنت بها كرها وماسكنت
روحي الى شجن فيها ولاسكن

والقبر استر لي منها واجمل بي
ان صدني الدهر عن عودي الى وطني (٢)

وكتب الى اخيه :

عجمتني الخطوب حينا فلما
عجزت ان تطيق مساغا

لفظتني وسالمتني فقد عا
د حذاري امنا وشغلي فراغا

واخو الصبر في الحوادث ان لم
يلقه الحين مدرك ماارغا (٣)

وكتب على حائط جامع :

هذا كتاب فتى احلته النوى
اوطانها ونبت به اوطانه

شطت به عمن يحب ديارة
وتفرقت ايدي سبا اخوانه

متتابع الزفرات بين ضلوعه
قلب يبوح ببثه خفقانه

تأوي إليه مع الظلام همومه
وتذوده عن نومه أشجانه

لكنه لا يستكين لحادث
خوف الحمام ولايراع حنانه

ألفت مقارعة الكماة جياده
وسرى الهواجر لايني ذملانه

يومان أجمع دهره إما سرى
أو يوم حرب تلتظي نيرانه (٤)

أنشدنا أبو المظفر :

نافقت دهري فوجهي ضاحك جذل
طلق وقلبي كئيب مكمد باكي

وراحة القلب في الشكوى ولذتها
لو أمكنت لا تساوي ذلة الشاكي (٥)

وانشدني ايضا:

اصبحت لا اشكو الخطوب وانما
اشكو زمانا لم يدع لي مشتكي

افنى اخلائي واهل مودتي
واباد اخوان الصفاء واهلكا

عاشوا براحتهم ومت لفقدهم
فعلي يبكي لا عليهم من بكى

وبقيت بعدهم كأني حائر
بمفازة لم يلق فيها مسلكا (٦)

وانشدني ايضا :

احبابنا كيف اللقاء ودونكم
خوض المهالك والفيافي الفيح

ابكيتم عيني دما فكانما
انسانها بيد الفراق جريح

فكأن قلبي حين يخطر ذكركم
لهب الضرام تعاورته الريح (٧)

واذشدني ايضا :

يامؤيسي بتجنيه وهجرته
هل حرم الحب تسويفي وتعليلي

يبدي لي اليأس تصريحا فتكذبه
طماعي وأرى والامال تملي لي

وقد رضيت قليلا منك تبذله
فما احتيالي اذا استكثرت تقليلي (٨)

واذشدني ماقاله في ضرس له قلعة :

وصاحب لاتمل الدهر صحبته
يشقى لنفعي ويسعى سعي مجتهد

لم يبد لي مذ تصاحبنا فحين بدا
لناظري افترقنا فرقة الابد (٩)

واذشدني :

ومماذق رجع النداء جوابه
فاذا عرا خطب فابعد من دعي

مثل الصدى يخفى علي مكانه
ابدا ويملا بالاجابة مسمعي (١٠)م

واذشدني مما عمله بقيسارية :

اراني نهار الشيب قصدي وطالما
تجاوز بي ليل الشباب سبيلي

وقد كان عذري ان اضلني الدجى
فهل لي عذر والنهار دليلي (١١)

واذشدنا :

اذا ماعدا دهر من الخطب فاصطبر
فان الليالي بالخطوب حوامل

وكل الذي يأتي به الدهر زائل
سريعا فلا تجزع لما هو زائل (١٢)

واذشدني :

لاتخدعن باطماع تزخرفها
لك المنى بحديث المين والخدع

فلو كشفت عن الهلكى باجمعهم
وجدت هلكهم في الحرص والطمع (١٣)

واذشدني :

لادر درك من رجاء كاذب
يعترنا بورود لامع لال

ابدا يسوفنا بنصرة خاذل
ووفاء خوان وعطفة قال

وير ى سبيل الرشد لكن مالنا
عزم مع الاهواء والامال (١٤)

واذشدني مما قاله بمصر :

انظر الى صرف دهري كيف عودني
بعد المشيب سوى عاداتي الاول

تغاير من صروف الدهر معتبر
واي حال على الايام لم يحل

قد كنت مسعر حرب كلما خمدت
اضرمتها باقتداح البيض في القلل

همي منازلة الاقران احسبهم
فرائسي فهم مني على وجل

امضى على الهول من ليل واهجم من
سيل واقدم في الهيجاء من اجل

فصرت كالغادة المكسال مضجعها
على الحشايا وراء السجف والكلل

قد كدت اعفن من طول الثواء كما
يصدي المهند طول اللبث في الخلل

أروح بعد دروع الحرب في حلل
من الدبيقي فبؤسا لي والحلل

وما الرفاهة من رأيي وطري
ولاالتنعم من همي ولا شغلي

ولست ارضى بلوغ المجد في رفة
ولاالعلا دون حطم البيض والاسل (١٥)

وانشدني بعد ماقاله في خروجه من مصر ، قال :

اليك فلا تثني شؤونك شاني
ولاتملك العين الحسان عناني

ولاتجزعي من بغتة البين واصبري
لعل التنائي معقب لتداني

فللاسد غيل حيث حلت وانما
يهاب التنائي قلب كل هدان

ولاتحملي هم اغترابي فلم ازل
غريب وفاء في الورى وبيان

وفيا اذا ماخان جفن لناظر
ولم يرع كف صحبة لبنان

ارى الغدر عارا يكتب الدهر وصمة
ويقراه مابين الملا الملوان

ولاتسأليني عن زماني فانني
انزه عن شكوى الخطوب لساني

ولكن سلي عني الزمان فانه
يحدث عن صبري على الحدثان

رمتني الليالي بالخطوب جهالة
بصبري على مانابني وعراني

فما اوهنت عزمي الرزايا ولالها
بحسن اصطباري في الملم يدان

وكم نكبة ظن العدى انها الردى
سمت بي واعلت في البرية شاني

ومانا ممن يستكين لحادث
ولايملأ الهول المخوف جناني

وان كان دهري غال وفري فلم يغل
ثنائي ولاذكرى بكل مكان

وماكان الا للذوال وللقرى
وغوثا لملهوف وفدية عان

حمدت على حالي يسار وعسرة
وبرزت في يومي ندى وطعان

ولم ادخر للدهر ان راب او نبا
وللخطب الا صارمي وسناني

لان جميل الذكر يبقى لاهله
وكل الذي فوق البسيطة فان (١٦)

obeikandl.com

الأمير مؤيد الدولة أبو المظفر اسامة بن مرشد

من خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الاصفهاني

ابن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ بن محمد بن منقذ بن نصر بن هاشم بن سرار بن زياد بن زغيب بن مكحول بن عمرو بن الحارث ابن عامر بن مالك بن مالك بن عوف بن كنانة بن بكر بن عذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة بن مالك بن حمير بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عابر بن ارفخشد بن سام بن نوح بن لمك بن متوشلخ بن اخنوخ بن يرد بن مهلائيل بن قينان بن انوش بن شيث بن ادم عليه السلام .

اسامة كأسمه ، في قوة نثره ونظمه ، يلوح من كلامه امارة الامارة ، ويؤسس بيت قريضه عمارة العبارة ، نشر له علم العلم ، ورقي سلم السلم ، ولزم طريق السلامة ، وتذكب سبل الملامة ، واشتغل بنفسه ، ومحاورة ابناء جنسه ، حلو المجالسة ، حالي المساجلة ، ندي الندى بماء الفكاهة ، عالي النجم في سماء النباهة ، معتدل التصاريف ، مطبوع التصانيف ، اسكنه عشق الغوطة ، بدمشق المغبوطة ، ثم نبت به كما تنبو الدار بالكريم ، فانتقل الى مصر فبقي بها مؤمرا مشارا اليه بالتعظيم ، الى ايام ابن رزيك فعاد الى الشام ، وسكن دمشق مخصوصا بالاكرام ، حتى اخذت شيزر من اهله ، ورشقهم صرف الزمان بنبله ، ورماه الحدثان الى حصن كيفا مقيما بها في ولده ، مؤثرا بلدها على بلده ، حتى اعاد الله دمشق الى سلطنة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب في سنة سبعين ، ولم يزل مشغوفا بذكره ، مستهترا باشاعة نظمه ونثره ، والامير العضد مرهف ولد الامير مؤيد الدولة جليسه ، ونديمه وانيسه ، فاستدعاه إلى دمشق وهو شيخ قد جاوز الثمانين ، وكنت قد طالعت

مذيل السمعاني ووجدته قد وصفه وقرظه ، وانشدني العامري له باصفهان من شعره ماحفظه ، وكنت اتمنى ابدا لقياه ، واشيم على البعد حياه ، حتى لقيته في صفر سنة احدى وسبعين بدمشق وسألته عن مولده ، فقال : سنة ثمان وثمانين واربعمائة ، يوم الاحد السابع والعشرين من جمادى الاخرة . وانشدني لنفسه البيتين اللذين سارا له ، في قلع ضرسه :

وصاحب لا امل الدهر صحبته
يشقى لنفعي ويسعى سعي مجتهد

لم القه مذ تصاحبنا فحين بدا
لناظري افترقنا فرقة الابد (١٧)

لو انصفت فهمك ان كنت منتقدا ، فرقيت عن مرقب وهمك مجتهدا ، وغصت بنظر فكرك في بحار معانيه ، لغنمت من فرائد دره ولآليه ، ولعلمت ان الشعر اذا لم يكن هكذا فلغو ، وانه اذا لم يبلغ هذا الحد من الجد فهجر ولهو . ومن الذي اتى في وصف السن المقلوع ، بمثل هذا الفن المطبوع ، فهل سبقه احد الى معناه ، وهل ساواه في هذا النمط سواه .

وانشدني ايضا لنفسه ، في معنى قلع ضرسه :

وصاحب صاحبني في الصبا
حتى ترديت رداء المشيب

لم يبد لي ستين حولا ولا
بلوت من اخلاقه مايريب

افسده الدهر ومن ذا الذي
يحافظ العهد بظهر المغيب

ثم افترقنا لم اصب مثله
عمري ، ومثلي ابدا لايصيب

فاعجب لها من فرقة باعدت
بين الفين وكل حبيب (١٨)

واذشدني لنفسه من قديم شعره :

قالوا نهته الاربعون عن الصبا
واخو المشيب يحور ثمت يهتدي

كم حار في ليل الشباب فدله
صبح المشيب على الطريق الاقصد

واذا عددت سني ثم نقصتها
زمن الهموم ، فتلك ساعة مولدي (١٩)

تعجب من مقاصد هـذه الكلم ، وتعـرض لوارد هـذه الحـكم ، واقض العجب كل العجب ، مـن غزارة هـذا الادب ، ولولا ان المداد افضل ماترقم به صحائف الكتـب ، لحـررت هـذه الابيات بمـاء الذهب ، فهذا ابلغ من قول ابي فراس بن حمدان:

ماالعمر ماطالت به الدهور
العمر ماتم به السرور

ايام عزي ونفاذ امري
هي التي احسبها من عمري (٢٠)

فالفضل للمتقدم في ابتكار المعنى وللمتأخر في المبالغة ، حيث ذكره في بيت واحد ولم يجعل له نصيبا من العمر الا ساعة مـولده . فجميع الحياة على الحقيقة نصب ، والم وتعب .
واذشدني ايضا لنفسه من قديم نظمه :

تجرم حتى مللت عتابة
واعرضت عنه لااريد اقترابه

اذا سقطت من مفرق المرء شعرة
تأفف منها ان تمس ثيابه (٢١)

وانشدني من قديم قوله في السلوان ايضا :

لم يبق لي في هواكم ارب
سلوتكم ، والقلوب تنقلب

اوضحتم لي سبل السلو وقد
كانت لي الطرق عنه تنشعب

الام دمعي من هجركم سرب
فان ، وقلبي ومن غدركم يجب

ان كان هذا تعبدني ال
حب فقد اعتقتني الريب

احببتكم فوق ماتوهمه ال
ناس وخنتم اضعاف ماحسبوا ٢٢)

تأمل هذه المعاني والابيات ، بعين التأني والثبات ، تعرف ان قائلها من ذوي الحمية ، والنفوس الابية ، والهمم العلية ، وكل من يملكه الهوى ويسترقه ، قلما يطلقه السلو ويعتقه ، الا ان يكون كبيرا غلب عقله هواه ، واستهجن في الشهوات المذمومة نيل مناه . وقوله : « فقد اعتقتني الريب » في غاية الجودة ونهاية الكمال ، اعذب من الزلال ، واطيب من السحر الحلال ، والعب بقلوب المتيمين من نسيم الشمال .
وقوله ايضا من قديم شعره :

اذا اختفت في الهوى عني اساءته
ابدى تجنيه ذنبي قبل اجنيه

كذلك انسان عيني لايزال يرى
عيبي ، ولست ارى العيب الذي فيه (٢٣)

وقوله ايضا :

يادهر مالك لايصد
ك عن اساءتي العتاب

امرضت من اهوى ويأ
بى ان امرضه الحجاب

لو كنت تنصف كانت الا
مراض لي وله الثواب (٢٤)

قد قيل في مرض الحبيب كل معنى بكر ، مخترع لديه ومبتدع فكر ، الا ان هذه الابيات لطيفة المغزى ، طريفة المعنى ، مقصدها سهيل ، ومواردها سهل ، لو سمعتها في البادية عقيل لم يثبت لها عقل ، ولا شك ان حبيبه عند استنشاق هوائها ، فاز ببرء مهجته وشفائها .

هذه الابيات كنت نقلتها من تاريخ السمعاني فلما لقيت مؤيد الدولة قرأتها عليه ، وكنت اثبتها على هذا الوجه ، ابصر منى العينان ، وان لم يحط السمعان ، من انباء تاريخ السمعاني ، الحاوي للمعاني ، ابياتا رواها ، وناظمها بماء الحكمة رواها ، وقد بددتها في كتابي هذا غيرة من الملتقط ، وحفظا لها من العيي المشتط المشترط . واما اشعاره التي انشدنيها بدمشق سنة احدى وسبعين من نظمه على الكبر قوله حين قلت له : هل لك معنى مبتكر في الشيب

لو كان صد معاتبا ومغاضبا
ارضيته وتركت خدي شائبا

لكن رأى تلك النضارة قد ذوت
لما غدا ماء الشبيبة ناضبا

ورأى النهى بعد الغواية صاحبي
فثنى العنان يريغ غيري صاحبا

وابيه ، ماظلم المشيب وانه
املي ، فقلت عساه عني راغبا

انا كالدجى لما تناهى عمره
نشرت له ايدي الصباح ذوائبا(٢٥)

وهذا معنى مبتكر في الشيب لم يسبق اليه :
وقوله

اذستني الايام ايام الصبا
وذهلت عن طيب الزمان الذاهب

وتذكرت حالي فكل مآربي
فيما مضى ماهن لي بمآرب

وقوله :

نهار الشيب يكشف كل ريب
تكفل ستره ليل الشباب

ينم على المعايب والمساوي
كما نم النصول على الخضاب

فهل لي بعد أن ضحى بفودي
نهار الشيب ، عذر في التصابي

وقوله :

افدي بدورا تمالوا
على الملال ولجوا

قد كنت احسب اني
من هجركم لست انجو

هذا الذي كنت اخشى
فأين ماكنت ارجو

وقوله :

قل للذي خضب المشيب جهالة
دع عنك ذا فلكل صبغ ماح

او ماترى صبغ الليالي كلما
جددنه يمحوه ضوء صباح

وقوله في محبوس :

حبسوك والطير الذواطق انما
حبست لميزتها على الانداد

وتهيبوك وانت مودع سجنهم
وكذا السيوف تهاب في الاغماد

ماالحبس دار مهانة لذوي العلى
لكنه كالغيل للاساد

وانشدني قوله في الشمعة :

انظر الى حسن الشمع يظهر لل
رائين ذورا وفيه النار تستعر

كذا الكريم تراه ضاحكا جذلا
وقلبه بدخيل الهم مذفطر (٢٦)

وقوله :

لارمين بنفسي كل مهلكة
مخوفة يتحاماها ذوو الباس

حتى اصادف حتفي فهو اجمل بي
من الخمول واستغني عن الناس

وقوله :

العجز لاينقص رزقا ولا
يزيده حول ولافحص

كل له رزق سيأتيه لا
زيادة فيه ولانقص

قدضمن الله لنا رزقنا
جاءت به الاثار والنص

فما لنا نطلب من غيره
لولا قنوط النفس والحرص

وقوله في نفاق الدهر :

نافقت دهري فوجهي ضاحك جذل
طلق ، وقلبي كئيب مكمد باك

وراحة القلب في الشكوى ، ولذتها
لو امكنت ، لاتساوي ذلة الشاكي

قد تمكنت كلمة « لو امكنت » فما احسنها موقعا ، واجملها موضعا ، ثم قارن اللذة بالذلة وهما متجانسان .

وقوله :

اذا حال حالك صبغ الشباب
سقى عهده الغيث من حائل

فماذا الغرور بزور الخضا
ب لولا التعلل بالباطل

وقوله من قديم شعره :

أأن غض دهري من جماحي اوثنى
عناني او زلت باخمصي النعل

تظاهر قوم بالشمات جهالة
وكم احنة في الصدر ابرزها الجهل

وهل انا الا السيف فلل حده
قراع الاعادي ثم ارهفه الصقل (٢٧)

وقوله :

لاتوص عند الموت إل
لا بالوديعة والديون

ودع التشاغل بالحطا
م كفاك شغلك بالمنون

فوصية الاموات بالا
حياء من شعب الجنون

ومااحسن بيت المعري :

يوصي الفتى عند الممات كأنه
يمر فيقضي حاجة ويعود

ورأيته وقد اهدي له دهن البلسان ، فسألت عنه ، فقال : كتبت الى المهذب الحكيم ابن النقاش هذه الابيات على لسان :

ركبتي تخدم المهذب في العـل
م وفي كل حكمة وبيان

وهي تشكو اليه تأثير طول الـ
ـ عمر في ضعفها ومر الزمان

فبها فاقة الى ما يقوي
ها على مشيها من البلسان

كل هذا علالة ، ما لمن حا
زالثمانين بالنهوض يدان

رغبة في الحياة من بعد طول ال
ـ عمر ، والموت غاية الانسان

وقوله:

لاتحسدن على البقاء معمرا
فالموت اسر مايؤول اله

واذا دعوت بطول عمر لامريء
فاعلم بانك قد دعوت عليه

وقوله

يارب عفوا عن مسـ
ـيء خائفـ ما كان منه

متيقن ان سوف يصل
ـي النار ان لم تعفـ عنه

لما انشدني في الشيب لنفسي

ليل الشباب تولى
والشيب صبح تألق

ما الشيب الاغبار
من ركض عمري تعلق

وقلت:
ما اظن اني سبقت الى هذا المعنى فانشد لبعضهم بيتين هما

قالوا غبار قد علا
ك فقلت: ذا غير الغبار

هذا الذي نقل الملو
ك الى القبور من الديار

قلت : ولكن حققت انه من غبار ركض العمر ، وهو معنى مبتكر . وحضرت عند الامير مؤيد الدولة اسامة يوما اخر بدمشق سنة احدى وسبعين ، فانشدني قوله في القديم في اسـتدعاء صـديق الى مجلس المنادمة بالموصل وقد غاب عنها :

امهذب الدين استمع من عاتب .
لولا ودادك لم يفه بعتاب

اتطيع في الدهر وهو كما ترى
يقضي علي بفرقة الاحباب

امللتني وجعلت سكرك حجة
ونهضت ، ام لم تستحل شرابي

قسما لئن لم تأتني متنصلا
متبرعا بالعذر والاعتاب

لاحرمن الخندريس واغتدي
متنمسا بالماء والمحراب

وتبوء معتمدا باثم تنسكي
وبعابه ، اعظم به من عاب

وقوله في الشوق والمكاتبة :

لو ان كتبي بقدر الشوق واصلة
تتابعت كدموعي او كأنفاسي

وان وجدت سبيلا او قدرت على
خلاص عقل اسير في يد الكاس

اجريت اسود عيني فوق ابيضها
بمائها لامدادا فوق قرطاس

وقلت للشوق ياسحبان امل على
يدي ، اعيذك من عي وابلاس

حتى ابوح بما اشكو اليك كما
باح المريض بشكواه الى الاسي

وقوله في العذار :

انظر شماتة عاذلي وسروره
بكسوف بدري واشتهار محاقه

غطى ظلام الشعر من وجناته
صبحا تضيء الارض من اشراقه

وهو الجهول يقول هذا عارض
هو عارض لكن على عشاقه (٢٨)

وانشدني ايضا لنفسه :

ماانت اول من تناءت داره
فعلام قلبك ليس تخبو ناره

اما السلو او الحمام ، وماسوى
هذين قسم ثالث تختاره

هذا وقوفك للوداع وهذه
اظعان من تهوى وتلك ديارة

فاستبق دمعك فهو اول خاذل
بعد الفراق وان طما تياره

فذر الدموع تقل عن امد الذوى
ان لم يكن من لجة تمتاره

ليت المطايا ماخلقن فكم دم
سفكته ، يثقل غيرها اوزاره

ماحتف انفسنا سواها انها
لهي الحمام اتيح او انذاره

لو ان كل العيس ناقة صالح
ماساءني اني الغداة قذاره (٢٩)

وتناشدنا بيتا للوزير المغربي (٣٠) في وصف خفقان القلب وتشبيهه بظل اللواء الذي تخترقه الريح وهو :

كأن قلبي اذا عن اذ كاركم
ظل اللواء عليه الريح تخترق

فقال الامير مؤيد الدولة اسامة : لقد شبهت القلب الخافق وبالغت في تشبيهه واربيب عليه في قولي من ابيات هي :

احبابنا ، كيف اللقاء ودونكم
عرض المهامه والفيافي الفيح

ابكيتم عيني دما لفراقكم
فكأنما اذسانها مجروح

والبيت المشار اليه :

وكأن قلبي حين يخطر ذكركم
لهب الضرام تعاورته الريح

فقلت له: صدقت ، فان الوزير المغربي قصد تشبيه خفقان القلب وانت شبهت القلب الواجد باللهب ، وخفقانه باضطرابه عند اضطرامه لتعاور الريح ، فقد اربيت بالفصاحة على ذلك الفصيح . واذشدني ايضا من قوله ايام شبابه وهو معتقل وقد جرى ذكر الخيال :

ذكر الوفاء خيالك المنتاب
فألم وهو بودنا مرتاب

نفسي فداؤك من حبيب زائر
متعتب عندي له الاعتاب

مستشرف كالبدر خلف حجابه
او في الكرى ايضا عليك حجاب

ودي كعهدك والديار قريبة
من قبل ان تتقطع الاسباب

ثبت فلا طول الزيارةناقص
منه ، وليس يزيده الاغباب

حظر الوفاء علي هجرك طائعا
واذا اقتسرت فما علي عتاب (٣١)

قلت له احسنت . وتذاكر نا قول ابي العلاء المعري في الخيال :

لو حط رحلي فوق النجم رافعه
الفيت ثم خيالا منك منتظري

وابلغ من هذا في بعد المسافة :

وذكرت كم بين العقيق الى الحمى
فجزعت من امد الذوى المتطاول

وعذرت طيفك في الجفاء فإنه
يسري فيصبح دوننا بمراحل

ثم انشدني الامير اسامة قصيدة ذونية ، لنفسه ، منها :

محيا ماأرى ام بدر دجن
وبارق مبسم ام برق مزن

وثغر ام لآل ام اقاح
وريق ام رحيق بنت دن

ولحظ ام سنان ركبوه
باسمر من نبات الخط لدن

ومنها :

فيامن منه قلبي في سعير
وعيني منه في جنات عدن

اذا فكرت في انفاق عمري
ضياعا في هواك قرعت سني

وآسف كيف اخلق عهد ودي
وآسى كيف اخلف فيك ظني

واعجب مالقيت من الليالي
وأي فعالها بي لم يسؤني

تقلب قلب من مثواه قلبي
وجفوة من ضممت عليه جفني (٣٢)

وانشدني لنفسه من قصيدة :

حتام ارغب في مودة زاهد
واروم قرب الدار من متباعد

والام التزم الوفاء لغادر
جان واسهر مقلتي لراقد

واقول هجرته مخافة كاشح
يغري بنا ، وحذار واش حاسد

واظنه يبدي الجفاء ضرورة
واذا قطيعته قطيعة عامد

ياهاجرا افنى اصطباري هجره
وابتز ثوب تماسكي وتجالدي

كيف السبيل الى وصالك بعدما
عفيت بالهجران سبل مقاصدي

ويلومني في حمل ظلمك جاهل
يلقى جوى قلبي بقلب بارد

يزري على صبري بصبر مسعد
ويصد عن دمعي بطرف جامد

اتراك يعطفك العتاب وقلما
يثني العتاب عنان قلب شارد

هيهات وصلك عند عنقا مغرب
ورضاك ابعد من سهى وفراقد

ومن العناء طلاب ود صادق
من ماذق وصلاح قلب فاسد(٣٣)

وانشدني لنفسه في الحباب من ابيات :

وقد علاها حباب
كاللؤلؤ المنظوم

رأيت شمس نهار
قد رصعت بالنجوم

واجتمعنا عند الملك الناصر صلاح الدين بدمشق ليلة ، وكان يلعب بالشطرنج ، فقال لي الامير اسامة : اما انشدك البيتين اللذين قلتهما في الشطرنج ؟ فقلت : هات . فانشدني لنفسه :

انظر الى لاعب الشطرنج يجمعها
مغالبا ، ثم بعد الجمع يرميها

كالدرء يكدح للدنيا ويجمعها
حتى اذا مات خلاها ومافيها

وانشدني لنفسه ، وقد نظمه في غرض له في نور الدين رحمه الله :

سلطاننا زاهد والناس قد زهدوا
له فكل على الخيرات منكمش

ايامه مثل شهر الصوم طاهرة
من المعاصي ، وفيها الجوع والعطش (٣٤)

وانشدني لنفسه :

أأحبابنا هلا سبقتم بوصلنا
صروف الليالي قبل ان نتفرقا

تشاغلتم بالهجر ، والوصل ممكن
وليس الينا للحوادث مرتقى

كأنا اخذنا من صروف زماننا
امانا ومن جور الحوادث موثقا (٣٥)

وقال :

قمر اذا عاينته شغفا به
غرس الحياء بوجنتيه شقيقا

وتلهبت خجلا ، فلولا ماؤها
مترقرقا فيها لصار حريقا

وازور عني مطرقا فأضلني
أن أهتدي نحو السلو طريقا(٣٦)

وقال :

صد عني وأعرضا
وتناسى الذي مضى

واستمر الصدود وان
قطع الوصل واذقضى

واختفت في الهوى نذو
ب بدت حين أبغضا

صرح الان هجره
لي بما كان عرضا

كل عيب يبين في الســـ
ـخط يخفى مع الرضا

وإذا استعطف الملو
ل تجنى وأعرضا

ليتا من ملني وأز
ـحل جسمي وأمرضا

عادا بالوصل أو قضى
في العدل إذ قضى(٣٧)

وقال :

وأقول للعين في يوم الوداع وقد
فاضت بدمع على الخدين مستبق

تزودي اليوم من توديعهم نظرا
ثم افرغي في غد للدمع والارق(٣٨)

وقال في المعنى :

ياعين في ساعة التوديع يشغلك ال
بكاء عن آخر التسليم والنظر

خذي بحظك منهم قبل بينهم
ثم اجهدي بعدهم للدمع والسهر(٣٩)

وقال :

يامدعي الصبر عن أحبابه ، وله
دمع إذا حن ذكراهم يكذبه

خلفت قلبك في أرض الشآم وقد
أصبحت في مصر يامغرور تطلبه

هلا غداة النوى استصحبته وإذا اخـ
ـتار المقام فهلا كنت تصحبه

أفردته بالاسى في دار غربته
وعدت ، لاعدت ، تبكيه وتندبه

هيهات قد حالت الايام بينكما
فعز نفسك عما عز مطلبه

وقال :

صبري على فقد إخواني وفرقتهم
غدر ، وأجمل بي من صبري الجزع

تقاسمتهم نوى شطت بهم وردى
فالحي كالميت ما في قربه طمع

وأصبحت وحشة الغبراء دونهم
من بعد أنسي بهم والشمل مجتمع

وعشت منفردا منهم وأقسم ما
يكاد منفرد بالعيش ينتفع(٤٠)

وقال :

ما حيلتي في الملول يظلمني
وليس إن جار منه لي جار

وداده كالسحاب منتقل
وعهده كالسراب غرار

آمن ما كنت منه فاجأني
بغدره ، والملول غدار

عوني عليه مدامع سفح
وزفرة دون حرها النار(٤١)

وقال :

أصبحت لا أشكو الخطوب وإنما
أشكو زمانا لم يدع لي مشتكى

أفنى أخلائي وأهل مودتي
وأباد إخوان الصفاء وأهلكا

عاشوا براحتهم ومت لفقدهم
فعلي يبكي ، لاعليهم ، من بكا

وبقيت بعدهم كأني حائر
بمفازة لم يلق فيها مسلكا(٤٢)

وقال :

ونازح في فؤادي من هواه صدى
لم يرو غلته علي ولا نهلي

في فيه ما في جنان الخلد من درر
ومن رضاب ومن خمر ومن عسل

لو كنت أعلم أن البين يفجؤني
وريت ، قبل الذوى ، قلبي من القبل(٤٣)

وقال :

إن يحسدوا في السلم منـ ـزلتي من العز المنيف

فبما أهين النفس في
يوم الوغى بين الصفوف

لطالما أقدمت إقـ ـدام الحتوف على الحتوف

بعزيمة أمضى على
حد السيوف من السيوف(٤٤)

وقال :

إلق الخطوب إذا طرقـ ـن بقلب محتسب صبور

فسينقضي زمن الهمو
م كما انقضى زمن السرور

فمن المحال دوام حا
ل في مدى العمر القصير(٤٥)

و قال :

بكاء مثلي من وشك الذوى سفه
وأمر صبري بعد البين مشتبه

فما يسوفني في قربهم أمل
وليس في اليأس لي روح ولا رفه

أكاتم الناس أشجاني وأحسبها
تخفى ، فيعلنها الاسقام والوله

كانني من ذهول الهم في سنة
وناظري قرح الاجفان منتبه

أذنبت ثم أحلت الذنب من سفه
على الذوى ولبئس العادة السفه

أقمت طوعا وساروا ثم أندبهم
هلا صحبت نواهم حيث ماتجهوا

أضر بي ناظر تدمى محاجره
وخاطر مذ نأوا حيران مذشده

فما يلائم ذا بعد الذوى فرح
ولا يروق لهذا منظر نزه

سقيا لدهر نعمنا في غضارته
إذ في الحوادث عما ساءنا بله

وعيشنا لم يخالط صفوه كدر
وودنا لم تشب اخلاصه الشبه

مضى وجاء زمان لاذسر به
كل البرية منه في الذي كرهوا(٤٦)

وقال في الزهد :

مثوبة الفاقد عن فقده
بصبره ، أذفع من وجده

يبكيه في حزن عليه فهل
يطمع في التخليد من بعده

ما حيلة الناس وهل من يد
لهم بدفع الموت أو صده

وروده لابد منه ، فما
يذكر ما لا بد من ورده

سهامه لم يستطع ردها
داوود بالمحكم من سرده

ولا سليمان ابنه ردها
بملكه والحشد من جنده

عدل تساوى الخلق فيه فما
يميز المالك من عبده

كل له حد إذا ماانتهى
إليه وافاه على حده

تجمعنا الارض ، وكل أمرى
في لحده كالطفل في مهده

أما ترى أسلافنا عرسوا
بمنزل دان على بعده

تبؤوا الارض ولم يخبروا
عن حر مثواهم ولا برده

لحادث أسكتهم أمسكوا
عن ابتداء القول أو رده

لونطقوا قالوا التقى خير ما
تزود العبد إلى لحده

فارجع إلى الله وثق بالذي
أتاك في الصادق من وعده

للصابرين الاجر ، والامن من
عذابه ، والفوز في خلده(٤٧)

وقال :

أيها المغرور مهلا
بلغ العمر مداه

كم عسى من جاوز السـ
ـبعين يبقى كم عساه

أنسيت الموت أم ، أمـ
ـنك الله لظاه

تظلم الناس لمن تر
جوه أو تخشى سطاه

أنت كالتنور يصلى الـ
ـنار في دفع واه

وقال يرثي ولدا له :

أزور قبرك والاشجان تمنعني
من أنّ أرى نهج قصدي حين أنصرف

فما أرى غير أحجار منضدة
قد احتوتك ، ومأوى الدرة الصدف

فاذنني لست أدري أين منقلبي
كأنني خائف في الليل يعتسف

إن قصر العمر بي عن أن أرى خلفا
له ففي الاجر عند الله لي خلف

أقول للنفس إذ جد النزاع بها
يانفس ويحك أين الأهل والسلف

أليس هذا سبيل الخلق أجمعهم
وكلهم بورود الموت معترف

كم ذا التأسف أم كم ذا الحنين وهل
يرد من قد حواه قبره الأسف(٤٨)

وقال:

تقلب أحوال الزمان أفادني
جميل الاسى فيما ينوب من الخطب

إذا حل ما لايستطاع دفاعه
فما أجمل الصبر الجميل بذي اللب

وقال :

صبرا لأيام تنـــــــا
هت ، في معاندتي وعضي

فالدهر كالميزان ما
يذفك من رفع وخفض

هذا مع الافلاك مر
تفع وذا بحضيض أرض

وإلى الفناء جميع من
خفضته أو رفعته يفضي

وقال :

أرجأت كتبي إلى حين اللقاء فقد
أكدى رجائي ، وزاد الشوق إرجائي

والجأتني إلى صبري موانع أيـ
ـامي فلم يسلني سعيي وإلجائي

حتى أحاطت بي الأشواق واشتملت
علي واستحوذت من كل أرجائي

فهل سبيل إلى قرب يميط شجا
صدري فقد طال تبريحي وإشجاني

وقال :

حسن التواضع في الكريم يزيده
فضلا على الاضراب والامثال

يكسوه من حسن الثناء ملابسا
تنبو عن المترفع المختال

إن السيول إلى القرار سريعة
والسيل حرب للمكان العالي(٤٩)

وقال وكتب بها الى ولده الامير مرهف من حصن كيفا جوابا عن كتاب أنفذه إليه مع مستميح لم يتمكن من بلوغ مآثره من بره :

أبا الفوارس ، ما لاقيت من زمني
أشد من قبضة كفي عن الجود

رأى سماحي بمنزور تجاذف لي
عنه وجودي به فاجتاح موجودي

صرت إن هزني جان تعود أن
يجني نداي رأني يابس العود

وقال في المعنى :

أبا الفوارس إن أنكرت قبض يدي
من بعد بسطتها بالجود والكرم

الذنب للموت أرجاني إلى زمن
غلت أكف الندى بؤساه بالعدم

وقال :

حذرتني تجاربي صحبة العا
لم حتى كرهت صحبة ظلي

ليس فيهم خل إذا ناب خطب
قلت ما لي لدفعه غير خلي

كلهم يبذل الوداد لدى اليسـ
ـر ولكنهم عدى للمقل

فاعتزلهم ففي انفرادك منهم
راحة اليأس من حذار وذل

وقال :

سقوف الدور في خربرت(٥٠) سود
كستها النار أثواب الحداد

فلا تعجب إذا ارتفعت علينا
فللحظ اعتناء بالسواد

بياض العين يكسوها جمالا
وليس النور إلا في السواد

ونور الشيب مكروه ، وتهوى
سواد الشعر أصناف العباد

وطرس الخط ليس يفيد علما
وكل العلم في وشي المداد

وقال يرثي ولده عتيقا :

غالبتني عليك أيدي المنايا
ولها في النفوس أمر مطاع

فتخليت عنك عجزا ولو أغـ
ـنى دفاعي لطال عنك الدفاع

وأرادت جميل صبري فراعت
مطلبا في الخطوب لايستطاع

وقال فيه :

كلما امتد ناظري رده الدمـ
ـع حسيرا عن أن يرى لك شبها

لم يزقني من بعد فقدك مرأى
فيه للعين مسترادٌ وملهى

كنت عندي ألذ من رغد العيـ
ـش وأحلى من الحياة وأشهى

وقال في مدح الملك الناصر صلاح الدين سلطان مصر والشـا واليمن :

سمعت صروف الدهر قول العاتب
وتجنبت حرب المليك الحارب

وتجافت الايام عن مطلوبه
ومراده ، أكرم به من طالب

هو من عرفن فلو عصاه نهاره
لرماه نقع جيوشه بغياهب

وإذا سطا أضحت قلوب عداته
تلوى كمخراق(٥١) بكفي لاعب

من ذا يناوي الناصر الملك الذي
في كفه بحرا ردى ومواهب

وإذا سرى خلت البسيطة لجة
أمواجها بيض وبيض قواضب

ملك القلوب محبة ومهابة
فاقتادها طوعا بهيبة غاصب

وله في الشيب والانحناء والعصا :

حناني الدهر وأب-
ـلتني الليالي والغير

فصرت كالقوس ومن
عصاي للقوس وتر(٥٢)

اهدج في مشيي وفي
خطوي فتور وقصر

كأنني مقيد
وانما القيدالكبر

والعمر مثل الماء في
آخره يأتي الكدر (٥٣)

وله في الخيال:

ياهاجرا راضيا وغضبانا
ومعرضا هاجدا ويقظانا

هجرت اما لهفوة فرطت
مني اعلم الطيف بالذي كانا(٥٤)

وله:

يهون الخطب ان الدهر ذوغير
وأن أيامه بين الورى دول

وأن ما ساء أو ماسرمنتقل
عنا ، والا فانا عنه ننتقل

وله:

تناسبني الآجال كأنني
رزية سفر بالفلاة حسير

ولما تدع مني الثمانون منة
كأني إذا رمت القيام كسير

أؤدي صلاتي قاعدا ، وسجودها
علي إذا رمت السجود ، عسير

وقد أنذرتني هذه الحال أنني
دنت رحلة مني وحان مسير

وله من قصيدة يصف ضعفه في كبره من قطعة :

فاعجب لضعف يدي من حملها قلما
من بعد حطم القنا في لبة الاسد

وانشدني أيضا لنفسه :

لي مولى صحبته مذهب العمـ
ـر فلم يرع حرمتي وذمامي

ظنني ظله أصاحبه الدهـ
ـر على غير نائل واحترام

فافترقنا كأنه كان طيفا
وكأني رأيته في المنام(٥٥)

وللامير مجد الدين مؤيد الدولة ابن منقذ في مدح الملك الناصر :

لهفي لشرخ شبيبتي وزماني
وتروحي لفتوة وطعان

أيام لاأعطي الصبابة مقودي
أذفا ، ولايثني الغرام عناني

وإذا اللواحي ، في تقحمي الوغى
لا في المدام ولا الهوى ، تلحاني

وإذا الكماة على يقين أنهم
يلقى الردى في الحرب من يلقاني

أعتدهم ، وهم الاسود ، فرائسي
فهم دريئة صارمي وسناني

والأسد تلقى مثلها مني إذا
لاقيتها بقوى يد وجنان

كم قد حطمت الرمح في لباتها
فتركتها صرعى على الأذقان

حتى إذا السبعون قصر عشرها
خطوي ، وعاث الضعف في أركاني

أبلتني الأيام حتى كل عن
ضرب المهند ساعدي وبناني

هذا وكم للدهر عندي نكبة
في المال والأهلين والاوطان

ذوب يروض بها إباي وقد عسا
عودي ، فما تثنيه كف الحاني

لا أستكين ولا ألين وقد بلا
فيما مضى صبري على الحدثان

فالآن يطمع في اهتضامي إنه
قد رام أمرا ليس في الامكان

والناصر الملك المتوج ناصري
وعلاه قد خطت كتاب أماني

قد كنت أرهب صرف دهري قبله
فأعاد صرف الدهر من أعواني

obeikandi.com

أنا جاره ويد الخطوب قصيرة
عن أن تنال مجاور السلطان

ملك يمن على أسارى سيبه
فيعيدهم في الاسر بالاحسان

خضعت له صيد الملوك فمن برى
أقلامه غرر على التيجان

ملأ القلوب محبة ومهابة
فخلت من البغضاء والشنآن

لي منه إكرام علوت به على
زهر النجوم ، ونائل أغناني

قرن الكرامة بالنوال مواليا
فعجزت عن إحصاء ما أولاني

فنداه أخلف ما مضى من ثروتي
وبقاؤه عن أسرتي أسلاني

فلأهدين إلى علاه مدائحا
تبقى على الأحقاب والأزمان

مدحا أفوق بها زهيرا مثلما
فاق المليك الناصر ابن سنان(٥٦)

ياناصر الاسلام حين تخاذلت
عنه الملوك ومظهر الايمان

بك قد أعز الله حزب جنوده
وأذل حزب الكفر والطغيان

لما رأيت الناس قد أغواهم الشـ
ـيطان بالالحاد والعصيان

جردت سيفك في العدى ، لارغبة
في الملك بل في طاعة الرحمان

فضربتهم ضرب الغرائب واضعا
بالسيف ما رفعوا من الصلبان

وغضبت لله الذي أعطاك فصـ
ـل الحكم غضبة ثائر حران

فقتلت من صدق الوغى ، ووسمت من
نجى الفرار بذلة وهوان

وبذلت أموال الخزائن بعدما
ضرمت وراء خواتم الخزان

في جمع كل مجاهد ومجالد
ومبارز ومنازل الاقران

من كل من يرد الحروب بأبيض
عضب ، ويصدر وهو أحمر قان

ويخوض نيران الوغى ، وكأنه
ظمآن خاض موارد الغدران

قوم إذا شهدوا الوغى قال الورى :
ماذا أتى بالاسد من خفان

لو أنهم صدموا الجبال لزعزعوا
أركانها بالبيض والخرصان

فهم الذخيرة للوقائع بالعدى
ولفتح ما استعصى من البلدان

أنت الذي علمتهم .....
.....فارس الفرسان

فاسلم مدى الايام يامن ما له
.....ثان(٥٧)

واسعد بشهر الله فهو مبشر
لعلاك بالتأييد والغفران

في دولة عمت بنائلها الورى
فدعا لها بالخلد كل لسان

وله في الهزل:

خلع الخليع عذاره في فسقه

حتى تهتك في بغى ولواط

يأتي ويؤتى ، ليس يذكر ذا ولا
هذا ، كذلك إبرة الخياط

وله :

يا عاتبين عتاب المستريب لنا
لا تسمعوا في الهوى ما تدعي التهم

من لي بأن بسيط الارض دونكم
طرس وأني في أرجائه قلم

أسعى إليكم على رأسي ويمنعني
إجلالي الحب أن يسعى بي القدم

وله قصيدة مشهورة كتبها إلى دمشق بعد خروجه منها إلى مصر في زمان بني الصوفي(٥٨) كتبها إلى الأمير أنر ، ويشير إلى بني الصوفي ، أنشدنيها لنفسه وهي ذات تضمين(٥٩) :

ولوا ، ولما رجونا عدلهم ظلموا
فليتهم حكموا فينا بما علموا

ما مر يوما بفكري ما يريبهم
ولا سعت بي إلى ما ساءهم قدم

ولا أضعت لهم عهدا ولا اطلعت
على ودائعهم في صدري التهم

قليت شعري بم استوجبت هجرهم
ملوا فصدهم عن وصلي السأم

حفظت ما ضيعوا ، أغضيت حين جذوا
وفيت إذ غدروا ، واصلت إذ صرموا

حرمت ماكنت أرجو من ودادهم
ما الرزق الا الذي تجري به القسم

محاسني ، منذ ملوني بأعينهم ،
قذى ، وذكري في آذانهم صمم

وبعد لو قيل لي ماذا تحب وما
هواك من زينة الدنيا لقلت هم

هم مجال الكرى من مقلتي ، ومن
قلبي محل المنى ، جاروا أو اجترموا

تبدلوا بي ولا أبغي بهم بدلا
حسبي هم انصفوا في الحكم أو ظلموا

اراكبا تقطع البيداء همته
والعيس تعجز عما تدرك الهمم

بلغ أميري معين الدين مألكة
من نازح الدار لكن وده أمم

وقل له أنت خير الترك فضلك الـ
ـحياء والدين والاقدام والكرم

أنت أعدل من يشكى إليه ولي
شكية أنت فيها الخصم والحكم

هل في القضية يامن فضل دولته
وعدل سيرته بين الورى علم

يضيع واجب حقي بعدما شهدت
به النصيحة والاخلاص والخدم

ما ظننتك تنسى حق معرفتي
إن المعارف في أهل النهى ذمم

ولا أعتقدت الذي بيني وبينك من
ود ، وإن أجلب الأعداء ، ينصرم

لكن ثقاتك ما زالوا بعتبهم
حتى استوت عندك الأنوار والظلم

باعوك بالبخس يبغون الغنى ، ولهم
لو أنهم عدموك ، الويل والعدم

والله ما نصحوا لما استشرتهم
وكلهم ذو هوى في الرأي متهم

كم حرفوا من معان في سفارتهم
وكم سعوا بفساد ، ضل سعيهم

أين الحمية والنفس الأبية إذ
ساموك خطة خسف عارها يصم

هلا أنفت حياء أو محافظة
من فعل ما أنكرته العرب والعجم

أسلمتنا ، وسيوف الهند مغمدة
ولم يرو سنان السمهري دم

وكنت أحسب من والاك في حرم
لايعتريه به شيب ولاهرم

وأن جارك جار للسموأل لا
يخشى الأعادي ولاتغتاله الذمم

وما طمان(٦٠) بأولى من أسامة بالـ
ـوفاء لكن جرى بالكائن القلم

هبنا جنينا ذنوبا لايكفرها
عذر ، فماذا جنى الأطفال والحرم

ألقيتهم في يد الافرنج متبعا
رضى عدى يسخط الرحمن فعلهم

هم الأعادي ، وقاك الله شرهم
وهم بزعمهم الأعوان والخدم

إذا نهضت إلى المجد تؤثله
تقاعدوا ، فإذا شيدته هدموا

وإن عرتك من الايام نائبة
فكلهم للذي يبكيك مبتسم

حتى إذا ماانجلت عنهم غيابتها
بحد عزمك وهو الصارم الخذم

رشفت آخر عيش كله كدر
ووردهم من نداك السلسل الشبم

وإن أتاهم بقول عنك مختلق
واش ، فذاك الذي يحبى ويحترم

وكل من ملت عنه قربوه ومن
والاك فهو الذي يقصى ويهتضم

بغيا وكفرا لما أوليت من منن
ومرتع البغي لولا جهلهم وخم

جربهم مثل تجريبي لتخبرهم
فللرجال إذا ما جربوا قيم

هل فيهم رجل يغني غناي إذا
جلى الحوادث حد السيف والقلم

أم فيهم من له في الخطب ، ضاق به
ذرع الرجال ، يد يسطو بها وفم

لكن رأيك أدناهم وأبعدني
فليت أنا بقدر الحب نقتسم

وما سخطت بعادي إذ رضيت به
وما لجرح إذا أرضاكم ألم

ولست آسي على الترحال من بلد
شهب البزاة سواء فيه والرخم

تعلقت بحبال الشمس فيه يدي
ثم انثنت وهي صفر ماؤها ندم

فاسلم فما عشت لي فالدهر طوع يدي
وكل ما نالني من بؤسه نعم(٦١)

وأردت أن أورد من نثره ما يزهو فجره ، ويبهر سحره ، فوجدت له جواب كتاب كتبه القاضي الفاضل ابن البيساني(٦٢) إليه من مصر عند عوده إليها ، ونحن بدمشق سنة إحدى وسبعين ، وأثبت أولا الرسالة الفاضلية وهي أديبة غريبة ، صنيعة بديعة ، جامعة للدرر ، لامعة بالغرر ، وهي :

وصل كتاب الحضرة الشامية الاجلية ، المؤيدة الموفقة المكرمة ، مجد الدين ، قدوة المجاهدين ، شيخ الامراء ، أمين العلماء ، مؤيد الدولة ، عز الملة ، ذات الفضيلتين ، خالصة أمير المؤمنين ، لازالت رياض ثنائها متناوحة ، وخطرات الردى دونها متنازحة ، والبركات إلى جنابها متوالية ، والليالي بأنوار سعادتها متلالية ، والايام الجافية ، عن بقية الفضل بها متجافية ، وأحكامها الهافية ، تاركة للمجد فيها فئة تتحيز ، إليها المكرمات إذا لم يكن لها فية . فأنشده ضالة هوى كان لنشدانها مرصدا ، ورفع له نارا موسوية سمع عندها الخطاب وآنس الخير ووجد الهدى ، وكانت نار الخليل ، في فؤاده بخلاف نار الخليل ، فإنها لاتقبل ندى الاجفان بأن يكون بردا وسلاما ، ولاترى بمائها إلا أضرى ما كانت ضراما ، وشهد الله حوالة على علمه بما هو فيه ، لا إحالة بما يخالفه الضمير وينافيه ، لقد كان العبد ناكس الرأس خجلا ، غضيض الطرف حياء ، مقيد النظر إطراقا ، حصر القول تشورا(٦٣) منه ، فارقها على تلك الصفة فلا هو قضى من حقها فرائض لزمت ، والله وتعينت ، ولا الضرورة في مقامها بحيث تبلغه أذسها أذنت ، ولا مدت هذه الطيفية والسحابة الصيفية بالذوى المستأذفة ما اقتربت ، ولا الايام بالبعد ماأساءت فإنها بالقرب ما أحسنت .

وإن امرءا يبقى على ذا فؤاده
ويخبر عنه ، إنه لصبور

ويعود إلى ذكر الكتاب الكريم ، وسجد لمحرابه وسلم ، وحسب سطوره مباسم تبسم ، ووقف عليه وقوف المحب على الطلل يكلمه ولايتكلم ، وهطل جفنه وقد كان جمادى ودمعه وقد كان على صفحة المحرم ، وجدد له صبابة لايصحبها أمل ، وخاف أن لايدرك الهيجاء

حمل(٦٤) ، وقال الكتاب :
إنا محيوك فاسلم أيها الطلل(٦٥)

وعز ، والله ، عليه أن يدخل كاتبه القلوب ويخرج من المقل ، وأنشد نيابة عنها :

وإن بلادا ما احتلت بي لعاطل
وإن زمانا ما وفى لي لخوان

وما يحسب العبد أن الملك يعجز عن واحد وهو بالورى مستقل ، وأن السحاب يعرض عن ذكي الروض وهو على الفلا مستهل .

ولقد كتب في هذا المعنى بما يرجو أن لا يرجى ، وأنهى منه ما اقتضى الصواب أن ينهى ، والله المسؤول لها في عاقبة حميدة ، وبقية من العمر مديدة ، فإنها الآن نوح الأدب وطوقانها العلم الذي في صدرها ، ولاغرو أن يبلغ عمره بعمرها ، على أن يتحقق خلودها في الجنة بعملها ، وفي الدنيا بذكرها ، فإن الدارين يتغايران على عقائل فخرها ، ولايتغيران عن إجرائها على رفع قدرها ، وعلى أنها طالما أقامت الحد على الدنيا السكرى حتى بلغت في حدها من العمر الثمانين ، وأنتت الايام بسلاح الحرب من سيفها وسلاح السلم من قلمها تأديب الجانين ، وما حملت العصا بعد السيف حتى ألقت

إليها السلم فوضعت الحرب أوزارها ، ولا استقلت بآية موسى إلا لتفجر بها أنوار الخواطر وتضرب بحارها ، وما هي إلا رمح وكفى بيدها لها سنانا ، وما هي إلا جواد يجنب السنين خلفها فتكون أناملها لها عنانا .

وعلى ذكر العصا فإن الكتاب المجموع فيها حسب أنه ثانية العصا ، واضيف إلى محاسنها التي لاتحصى أو يحصى الحصا .

وكان من مدة قد شاهد بحلب كتبا بخط المولى الولد دلت على مضض ومرض ، ولعله الآن قد عوفي من الامرين ، وقرت بوجهه العين ، وجددت عهدا بنظرة ، وقرت عليها لسانه إسناد خبره ، وبلت غلة الحائم ، ورأت منه هلال الصائم ، وطالعها وجه الزمان المغضب منه بصفحة المباسم ، وفي مواعيد الانس منه الضامن الغارم ، وهو يسلم عليه تسليم الندى على ورق الورد ، ويستثمر الوفاء من غرس ذلك العهد ، ولكتاب الحضرة العالية من الخادم موقع الطوق من الحمام يتقلد فلا يخلع ، ويعجبها فلا تزال تسجع ، يجليه طوقا على الاسى إلا أنه بدر الدمع مرصع ، ولايمنعه منه شعار السرور أن يحزن لفرقتها ويجزع ، فإذا أنعم به فمع ثقة ويخشى أن يكون هذا الشرط له قاطعا ، بل مع من اتفق فانه كالمسك لا يدعه العرف الضائع أن يكون ضائعا :

اكتبه تكتب لي أمانا ماضيا
وابعثه تبعث لي زمانا راجعا

إن أشتريه بمهجتي فقليلة
فاسمح به ، فمتى عرفتك مانعا

وجواب مؤيد الدولة ، وقرأته عليه فسمعه :

-٥٥٠٢-

وصل الكتاب أنا الفداء لفكرة
نظمت نفيس الدر فيه أسطرا
وفضضته عن جونة فتأرصت
نفحاته مسكا وفاحت عنبرا
وأعدت فيه تأملي متحيرا
كيف استحال اللفظ فيه جوهرا

الخادم يخدم المجلس العالي الأجلي الاوحد الصدر الفاضل ، فضله الله برفع درجاته في الجنان ، كما فضله بمعجز البلاغة والبيان ، وبلغه من الخيرات أمله ، وختم بالحسنى عمله ، وجمل ببقائه الدنيا ، وأجزل حظه من رحمته في الاخرى ، بسلام يغاديه نشره ويراوحه ، ودعاء لايحجب عن الاجابة صالحه ، وثناء يضيق عن حصر فضائله منادحه ، وما عسى أن يقول مطريه ومادحه ، والفضل نغبة من بحره الزاخر ، وقطرة من سحابه الماطر ، تفرد به فما له فيه من نظير وسبق من تقدمه في زمانه الأخير ، فتق عن البلاغة أكماما تزينت الدنيا منها بالأعاجيب ، وأتى بآيات فصاحة كادت أن تتلى في المحاريب ، إذا استنطقت ازدحمت عليها العقول والاسماع ، ووقع على الاقرار بإعجازها الاتفاق والاجماع ، فسبحان من فضله بالبلاغة على الأنام ، وذلل له بديع كلام ما كأنه من الكلام ، تعجز عن سلوك سبيله الأفهام ، وتحار في إدراك لطف معانيه الأوهام ، هو سحر لكنه حلال ، ودر إلا أن بحره حلو سلسال .

ولايظن ، أدام الله ببقائه جمال الزمان وأهله ، ويسر له إظهار مكتوم فضله ، أن الخادم يسلك سبيل الذفاق في مقاله ، ولا إعارة شهادة في وصف كماله ، لا والله

ماذلك مذهبه ، ولاهو مراد المجلس العالي ولاأربه ، ولكنها شهادة ولايحل كتبها ، وقضية جرى بقول الحق فيها حكمها ، ولولا أن الخادم قد بقي فيه أثر من اقدام الشباب ، لأحجم عن اصدار

كتاب أو رد جواب ، لكنه على ثقة من كريم مساهلة المجلس العالي وحسن تجاوزه ، ويقين أن فضله جدير بستر نقص الخادم وسد معاوزه ، وهو يضرب عن ذكر ماعنده من الشوق الى كريم رؤيته ، والوحشة بمحبوب خدمته ، ويقتصر على ماقاله زهير :

ان تمس دارهم مني (٦٦) مباعدة
فما الأحبة الا هم وأن بعدوا

فأما ماأنعم به من ذكر الخادم في مطالعاته فهو كذكر موسى أخاه هرون عليه السلام في مناجاته ، ولا سواء ، موسى ذكر شقيقه ، والمجلس العالي ذكر رفيقه ، وهذه اليد البيضاء مضافة الى سالف اياديه ، مقابلة بالاعتراف بالمنة السامية ، فلقد شرفه بذكره في ذلك المقام العالي ، وان كان لايزال على ذكر الانعام المتوالي ، تقريب مالك رقه واكرامه قد شرفاه ، وانعامه قد أغناه عن الخلق وكفاه ، ان سأله أجاب سؤاله ، بما يحقق رجاءه وآماله وان أمسك عن غني فضله بفضله ، فاجأه بتبرع مواهبه وبذله ، فالخادم من تشريف مالك رقه ذو تاج وسرير ، ومن غزير انعامه في روضة وغدير ، وذلك ببركات المجلس العالي ويمن نقيبته ، وجميل رأيه في الخادم وحسن نيته ، لكن يشوب ما هو فيه من إنعام لم تبلغه أمانيه أسف قد أقض لين مهاده ، وسلك من القلب حبة سواده ، على ذاهب عمره ، وقوة اسره ، واذا لم يكن أبلاهما في خدمة مالك رقه ، وبذل رأسه بين يديه ابانة عن صحة ولائه وصدقه ، والخادم يتسلى من الخدم في المهم ، بخدمته بصالح دعائه في الليل المدلهم ، والله سبحانه يتقبل من الخادم فيه صالح دعائه ، وينصره على جاحدي نعائمه ، بمحمد وآله

فأما ماأنعم به من ذكر اصغر خدمه مرهف فهو يخدم بتقبيل قدمه ، والخادم يقول ماقاله أبو الفتيان ابن حيوس عن خدمة أبو الحسن رحمه الله لمحمود بن صالح .

على أنه ، لا فل غرب لسانه
مدى الدهر يحتاج مني مترجما (٦٧)

وهو يقوم بالجواب عن شريف الاهتمام ، وجزيل الأنعام .
وأما ماتطول به من ذكر كتاب « العصا » وشرفه ، حتى توهم انه أحسن فيما صنفه ، وعند وصوله من ديار بكر ، لايلقى عصا تسياره الا بمصر ، يقتفي اثر عصا الكليم ، الى جنابه الكريم ، الا أنه آية اقراره بالربوبية لفضله وافضاله ، ساجد سجود السحرة لتعظيمه واجلاله ، يتلقف من انعامه حسن التجاوز عن نقصه ، ويعوذ بكرمه من منافثة علمه وفحصه ، وتشريف الخادم ولو بسطر واحد عند خلو البال . والفزع من مهم الأشتغال ، يرفع من قدره ، ويوجده أنه بالمكان المكين من حسن ذكره ورأيه ، وأدام الله ايامه في ذلك أعلى ان شاء الله تعالى .

وكتب الي وقد رحلنا من دمشق في خدمة الملك الناصر الى حلب في شوال سنة احدى وسبعين :

عماد الدين أنت لكل داع
دعاك لعونه خير العماد
تقوم لنصره كرما اذا ما
تقاعد ذو القرابة والوداد
قضى لك بالعلى كرم السجايا
وماأوتيت من كرم الولاد
أبثك وحشتي لك واشتياقي
اليك ومالقيت من البعاد
واني في دمشق ، ومن حوته
لبعدك ذو اغتراب وانفراد
ومثلك ان تطلبه خبير
بهذا الخلق ليس بمستفاد

أنار بك الزمان فلا علته
لفقد علاك أثواب الحداد

وكتب الي ايضا في ابتداء مكاتبه :

ياعمادي حين لامعتمد
وصدى صوتي في الخطب الملم
والذي بوأني من رأيه
في أعالي ذروة الطود الأشم
منذ فارقتك أذسي نافر
وسنا صبحي كليل مدلهم
فالى من اشتكى شيئا اذا
غاب عني مشتكي طارق غمي
واذا كنت معافى سالما
في اعتلاء وسعود هان همي

خادم المجلس العالي يخدم بالثناء والدعاء :

ويومىء بالتحية من بعيد
كما يومي بأصبعه الغريق

وعنده من الشوق مع قرب العهد الى شهي رؤيته ، والوحشة لخدمته ، مايعجز الأقلام شرحه ، ويحرق الطرس لفحه ، وهو ينحرف من مقام الاشتكاء ، الى مقام الدعاء ، ويرغب الى الله أن يكلأه بحفظه في سفره ومقامه ، ويجزل حظه من فضله وانعامه .

ووصلت منه مكاتبة الى الملك الناصر صلاح الدين في صفر سنة اثنتين وسبعين فقال لي القاضي الفاضل : خذها وأوردها في الخريدة والجريدة وهي :

لازلت يامك الاسلام في نعم
قرينها المسعدان : النصر والظفر
تردي الأعادي وتستصفي ممالكهم
وعونك الماضيان : السيف والقدر
فأنت اسكندر الدنيا ، بنورك قد
تضاءل المظلمان : الظلم والضرر
أعدت للدهر أيام الشباب وقد
أظله المهرمان : الشيب والكبر
وجاد غيث نداك المسلمين فمن
سحابه المغنيان : الدر والبدر
وسرت سيرة عدل في الأنام كما
قضى به الصادقان : الشرع والسور
ففق بنصر على الكفار انهم
يرديهم المهلكان : الغدر والأشر
ثناهم اذ رأوا اقبال ملكهم
اليهم المزعجان : الخوف والحذر
ومالفرار بمنجيهم ، وخلفهم
من بأسه المدركان : السمر والبتر
وسوف يعفو غدا منهم بصارمه
وجيشه المخبران : العين والأثر
ولو رقوا في ذرى ثهلان اسلمهم
لسيفه العاصمان : الحصن والوزر
قضى بتفضيله عمن تقدمه
مااستودع المخبران : الكتب والسير
عدل به أمن الشاء المهمل أن
يروعه الضاريان : الذئب والذمر
وجود كف اذا انهلت تفرق في
تيارها الزاخران : البحر والمطر
مكارم جمعت فيه ، توافق في
تفضيلها الأكرمان : الخبر والخبر

فأسلم وعش وابق للاسم ماجرت ال
أفلاك والنيران : الشمس والقمر
بنجوة من صروف الدهر يقصر عن
منالها المفسدان : الخطب والغير

المملوك لبعده عن خدمة مولاه قد أذكر الزمان ، فما هو الذي كان ، وأوهب الأيام ماأبقته من يسير قوته ، واسترجعت ماأعارته من ضعيف نهضته ، وأذاقته طعم الاغتراب ، وأدخلت عليه الهم من كل باب ، فهو في زاوية المنزل ، عن كلمات الناس فيه بمعزل ، فهو كما قال :

أنا في أهل دمشق ، وهم
عدد الرمل ، وحيد ذو انفراد
ليس لي منهم أليف وشجت
بيننا الألفة أسباب الوداد
يحسبوني ان رأوني وافدا
قد اتاهم من بقايا قوم عاد
وانفرادي رشد لي ، والهوى
أبدا يصرف عن سبل الرشاد

وقد سألني أن أنتجز له مطلوبا عند الملك الناصر فكتب الي يستحثني :

عماد الدين ، مولانا جواد
مواهبه كمنهل السحاب
يحكم في مكارمه الأماني
ولو كلفنه رد الشباب
وعذرك في قضا شغلي قضاء
يصرفه ، فما عذر الجواب (٦٨)

أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد

(من معجم الأدباء لياقوت)

obeikandl.com

obeikandl.com

ابن نصر بن منقذ بن محمد بن منقذ بن نصر بن هاشم بن سرار ابن زياد بن زغيب ، بن مكحول بن عمر بن الحارث بن عامر بن مالك بن أبي مالك بن عوف بن كنانة بن بكر بن عذرة بن زيد اللات ابن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة بن ثعلب بن حلوان بن عمران بن قضاعة بن مالك بن حمير بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير بن سبأ ابن يشجب بن يعرب بن قحطان ، هكذا ذكر هو نسبه ، وفيه اختلاف يسير عند ابن الكلبي ويكنى اسامة أبا المظفر ، ويلقب مؤيد الدولة مجد الدين ، وفي بني منقذ جماعة أمراء شعراء ، لكن اسامة اشعرهم واشهرهم ، وأنا اذكر لكل واحد من أهله في ترجمته مايليق ولا أفرقهم ، ذكره عماد الدين ابو عبد الله محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني في كتاب خريدة القصر ، وجريدة العصر وأثني عليه كثيرا ، فقال : مازال بذو منقذ هؤلاء مالكي شيزر ، وهي حصن قريب من حماة معتصمين بحصانتها ممتنعين بمناعتها حتى جاءت الزلزلة في سنة نيف وخمسين ، فخربت حصنها ، وأذهبت حسنها ، وتملكها نور الدين محمود بن زنكي عليهم ، وأعاد بناءها فتشعبوا شعبا ، وتفرقوا أيدي سبأ .

قال ابن عساكر : ذكر لي أسامة أنه ولد سنة ثمان وثمانين وأربعمائة وقدم دمشق سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، ومات أسامة في ثالث عشري رمضان سنة أربع وثمانين وخمسمائة ودفن بجبل قاسيون .

قال العماد وأسامة كاسمه في قوة نثره ونظمه يلوح من كلامه أمارة الامارة ، ويؤسس بيت قريضة عمارة العبارة ، حلو المجالسة حالي المساجلة ، ندي الندى بماء الفكاهه ، عالي النجم في سماء النباهة ، معتدل التصاريف مطبوع التصانيف ، أسكنه عشق الغوطة ، دمشق المغبوطة ، ثم نبت به كما تنبو الدار بالكريم ، فانتقل الى مصر ، فبقي بها مؤمرا مشارا اليه بالتعظيم ، الى أيام ابن رزيك ، فعاد الى الشام ، وسكن دمشق مخصوصا بالاكرام حتى أخذت شيزر من أهله ، ورشقهم صرف

الزمان بذبله ، ورماه الحدثان الى حصن كيفا ، مقيما بها في ولده ، مؤثرا لها على بلده ، حتى أعاد الله دمشق الى سلطنة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة سبعين وخمسمائة ولم يزل مشغوفا بذكره ، مشتهرا باشاعة نظمه ونثره ، والأمير العضد مرهف ولد الأمير مؤيد الدولة جليسه ، ونديمه وأنيسه .

قال مؤلف هذا الكتاب : وقد رأيت أنا العضد هذا بمصر عند كوني بها في سنتي احدى عشرة وستمائة ، واثنتي عشرة وستمائة واذشدني شيئا من شعره وشعر والده .

قال : فاستدعاه الى دمشق ـ يعني مؤيد الدولة ـ وهو شيخ قد جاوز الثمانين .

قال : وأنشدني العامري من شعره بأصبهان وكنت أتمنى لقياه ، وأشيم على البعد حياه ، حتى لقيته في صفر سنة احدى وسبعين بدمشق ، وسألته عن مولده ، فقال ولدت في السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة واذشدني لنفسه البيتين اللذين سارا له في قلع ضرسه .

وصاحب لأمل الدهر صحبته
يشقى لنفعي سعي مجتهد
لم ألقه مذ تصاحبنا فحين بدا
لناظري افترقنا فرقة الأبد

وأنشدني لنفسه من قديم شعره :

قالوا نهته الأربعون عن الصبى
وأخو المشيب يحور ثمة يهتدي
كم حار في ليل الشباب فدله
صبح المشيب على الطريق الأقصد
واذا عددت سني ثم نقصنا
زمن الهموم فتلك ساعة مولدي

قلت أنا هذا كلام نفيس ، ومعنى لطيف ، ولكنه أخذ معنى البيت الثاني من قول ابن الرومي :

كفي بسراج الشيب في الرأس هاديا
الى من اضلته المنايا لياليا
فكان كرامي الليل يرمي فلا يرى
فلما اضاء الشيب شخصي رمانيا

وأخذ معنى البيت الأخير من قول ابي فراس بن حمدان في مزدوجته

ماالعمر ماطالت به الدهور
العمر ماتم به السرور
أيام عزي ونفاذ أمري
هي التي احسبها من عمري
لو شئت مما قد قللن جدا
عددت ايام السرور عدا

ولكن قول اسامة أبلغ في المعنى وهذا ظاهر ، قال وأنشدني من قديم شعره

لم يبق لي في هواكم أرب
سلوتكم والقلوب تنقلب
أوضحتم لي سبل السلو وقد
كانت لي الطرق عنه تنشعب
الام دعمي من هجركم سرب
قان وقلبي من غدركم يجب
ان كان هذا لأن تعبدني ال
حب فقد اعتقتني الريب

احببتكم فوق ماتوهمه ال
ناس وخنتم اضعاف ماحسبوا

وقوله ايضا :

يادهر مالك لايصد
ك عن مساءتي العتاب
امرضت من أهوى ويأ
بى ان أمرضه الحجاب
لو كنت تنصف كانت الأ
مراض لي وله الثواب
أخذ هذا المعنى من قول الشاعر
ياليت علته لي غير أن له
أجر المريض وأني غير مأجور

قال العماد : وهذا الذي أوردته من شعره نقلته من تاريخ السمعاني ، فلما وردت الى دمشق واجتمعت به قلت له هل لك معنى مبتكر في الشيب فأنشدني :

لو كان صد معاتبا ومغاضبا
أرضيته وتركت خدي شائبا
لكن رأى تلك النضارة قد ذوت
لما غدا ماء الشبيبة ناضبا
ورأى النهى بعد الغواية صاحبي
فثنى العنان يريغ غيري صاحبا
وأبيه ماظلم المشيب فإنه
أملي فقلت عساه عني راغبا
أنا كالدجى لما تناهى عمره
نشرت له ايدي الصباح ذوائبا

ومن شعره ايضا في محبوس :

حبسوك والطير الذواطق انما
حبست لميزتها على الأنداد
وتهيبوك وأنت مودع سجنهم
وكذا السيوف تهاب في الأغماد
ماالحبس دار مهانة لذوي العلى
لكنه كالغيل للآساد

ومنه قوله في الشمعة :

انظر الى حسن صبر الشمع يظهر لل
-رائين نورا وفيه النار تستعر
كذا الكريم تراه ضاحكا جذلا
وقلبه بدخيل الغم مذفطر

وقوله ايضا :

نافقت دهري فوجهي ضاحك جذل
طلق وقلبي كئيب مكمد باك
وراحة القلب في الشكوى ولذتها
لو أمكنت لاتساوي ذلة الشاكي

وقوله ايضا :

لئن غض دهر من جماحي أو ثنى
عناني أو زلت باخمصي النعل
تظاهر قوم بالشمات جهالة
وكم احنه في الصدر ابرزها الجهل

وهل أنا الا السيف قال حده
قراع الأعادي ثم أرهفه الصقل

وقوله ايضا :

لاتحسدن على البقاء معمرا
فالموت ايسر مايؤول اليه
واذا دعوت بطول عمر لأمرىء
فاعلم بأنك قد دعوت عليه

قال العماد : وتناشدنا بيتا للوزير المغربي في وصف خفقان القلب وتشبيهه بظل اللواء الذي تخترقه الرياح وهو :

كأن قلبي اذا عن اذكاركم
ظل اللواء عليه الريح تخترق

فقال لي الأمير مؤيد الدولة أسامة : فقد شبهت القلب الخافق ، وبالغت في تشبيهه ، وأربيت عليه في قولي من أبيات وهي :

احبابنا كيف اللقاء ودونكم
عن المهامه والفيافي الفيح
ابكيتم عيني دما لفراقكم
فكأنما انسانها مجروح
وكأن قلبي حين يخطر ذكركم
لهب الضرام تعاورته الريح

فقلت له : صدقت فان المغربي قصد تشبيهه خفقان القلب وانت شبهت القلب الواجب باللهيب ، وخفقانه باضطرابه عند اضطرامه

لتعاور الريح فقد أربيت عليه ، وأنشدني ايضا من قوله ايام شبابه ، وهو معتقل ، في الخيال :

ذكر الوفاء خيالك المنتاب
فألم وهو بودنا مرتاب
نفسي فداؤك من حبيب زائر
متعتب عندي له الاعتاب
ودي كعهدك والديار قريبة
من قبل ان تتقطع الأسباب
ثبت فلا طول الزيارة ناقص
منه وليس يزيده الاغباب
حظر الوفاء علي هجرك طائعا
واذا اقتسرت فما علي عتاب

قال : وتذاكرنا قول ابي العلاء المعري :

لو حط رحلي فوق النجم رافعه
الفيت ثم خيالا منك منتظري

وابلغ من هذا قول المعري في بعد المسافة :

وذكرت كم بين العقيق الى الحمى
فجزعت من أمد المدى المتطاول
وعذرت طيفك في الجفاء فانه
يسري فيصبح دوننا بمراحل

وأنشدني :

وأعجب مالقيت من الليالي
واي فعالها بي لم يسؤني

تقلب قلب من مثواه قلبي
وجفوة من ضممت عليه جفني

قال : واجتمعنا عند الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بدمشق ، وكان يلعب بالشطرنج ، فقال الأمير أسامة الا أنشدك البيتين اللذين قلتهما في الشطرنج ؟ فقلت : هات ، فأنشدني لنفسه :

انظر الى لاعب الشطرنج يجمعها
مغالبا ثم بعد الجمع يرميها
كالدرء يكدح الدنيا ويجمعها
حتى اذا مات خلاها ومافيها

وأنشدني لنفسه في غرض له في نور الدين محمود رحمه الله :

سلطاننا زاهد والناس قد زهدوا
له فكل على الخيرات مذكمش
ايامه مثل شهر الصوم خالية
من المعاصي وفيها الجوع والعطش

قال وأنشدني لنفسه :

أأحبابنا هلا سبقتم بوصلنا
صروف الليالي قبل ان نتفرقا

تشاغلتم بالهجر والوصل ممكن
وليس الينا الحوادث مرتقا
كأنا أخذنا من صروف زماننا
أمانا ومن جور الحوادث موثقا

وقال ايضا :

قمر اذا عاينته شغفا به
غرس الحياء بوجنتيه شقيقا
وتلهبت خجلا فلولا ماؤها
مترقرقا فيه لصار حريقا
وأزور عني مطرقا فاضلني
ان اهتدي نحو السلو طريقا
فليلحني من شاء فيه فصبوتي
بهواه سكر لست منه مفيقا

وكتب اليه ابنه ابو الفوارس مرهف الى حصن كيفا فكتب اسامة جوابه :

أبا الفوارس مالاقيت من زمني
اشد من قبضة كفي عن الجود
رأى سماحي بمنزور تجاذف لي
عنه وجودي به فاجتاح موجودي
فصرت ان هزني جان تعود ان
يجني نداي رآني يابس العود

وقال ايضا :

سقوف الدور في خربرت سود
كستها النار اثواب الحداد

فلا تعجب اذا ارتفعت علينا
فللحظ اعتناء بالسواد
بياض العين يكسوها جمالا
وليس الدور الا في السواد
وذور الشيب مكروه وتهوى
سواد الشعر اصناف العباد
وطرس الخط ليس يفيد علما
وكل العلم في وشي المداد

وله في مدح صلاح الدين :

هو من عرفت فلو عصاه نهاره
لرماه نقع جيوشه بالغياهب

وله في الهزل :

خلع الخليع عذاره في فسقه
حتى تهتك في بغا ولواط
يأتي ويؤتى ليس ينكر ذا ولا
هذا كذلك ابرة الخياط

قال العماد : وكان قد سألني أن انتجز له مطلوبا عند الملك الناصر صلاح الدين ، فكتب الي يستحثني :

عماد الدين مولانا جواد
مواهبه كمنهل السحاب
يحكم في مكارمه الاماني
ولو كلفته رد الشباب

وعذرك في قضا شغلي قضاء
يصرفه فما عذر الجواب

ولمؤيد الدولة بن منقذ تصانيف حسان منها كتاب العصا ، كتاب الشيب والشباب ألفه لأبيه ، كتاب ذيل يتيمة الدهر للثعالبي ، كتاب تاريخ ايامه ، كتاب في أخبار أهله رأيته .

ومن شعر الأمير الأجل مؤيد الدولة مجد الدين اسامة بن منقذ :

صديق لنا كالبحر قد أهلك الورى
ولم ينههم اخطاره عن ركوبه
موداته تحكيه صفوا وخبرها
كمشربه من حوبه ونذوبه

ومنه ايضا :

كنت بين الرجاء واليأس منه
اقطع الدهر بين سلم وحرب
ألتقي عتبه بأكرم اعتا
ب ويلتقى ذلي بتيه وعجب
فبدا للملوك أني لورم
ت سلوا لما سلا عنه قلبي
فتجني لي الذنوب ولا والـ
ـله مالي ذنب سوى فرط حبي

ومنه ايضا :

انظر بعينك هل ترى
أحدا يدوم على المودة

لترى اخلاء الصفا
ء عدى اذا تأتيك شده

ومنه ايضا :

تذكرني الأخوان حتى ثقلتهم
وحذرني منهم نذير التجارب
كأني اذا أودعت سري عندهم
رفعت بنار فوق أعلى المراقب

قال العماد : وكتبها الى دمشق بعد خروجه الى مصر في ايام بني الصوفي يشير اليهم :

ولوا فلما رجونا عدلهم ظلموا
فليتهم حكموا فينا بما علموا
مامر يوما بفكري مايريبهم
ولاسعت بي الى ماساءهم قدم
ولاأضعت لهم عهدا ولاأطلعت
على ودائعهم في صدري التهم
محاسني منذ ملوني باعينهم
قذى وذكري في آذانهم صمم
وبعد لو قيل لي ماذا تحب وما
تختار من زينة الدنيا لقلت هم
هم مجال الكرى من مقلتي ومن
قلبي محل المنى جاروا أو اجترموا
تبدلوا بي ولاأبغي بهم بدلا
حسبي بهم انصفوا في الحكم أم ظلموا
ياراكبا تقطع البيداء همته
والعيس تعجز عما تدرك الهمم

بلغ اميري معين الدين مألكة
من نازح الدار لكن وده أمم
هل في القضية يامن فضل دولته
وعدل سيرته بين الورى علم
يضيع واجب حقي بعد ماشهدت
به النصيحة واذا شيدته هدموا
وأن عرتك من الأيام نائبة
فكلهم للذي يبكيك يبتسم
وكل ماملت عنه قربوه ومن
والاك فهو الذي يقصى ويهتضم
اين الحمية والنفس الأبية اذ
ساموك خطة خسف عارها يصم
هلا انفت حياء أو محافظة
من فعل ماانكرته العرب والعجم
أسلمتنا وسيوف الهند مغمدة
ولم يرو سنان السمهري دم
وكنت احسب من والاك في حرم
لايعتريه به شيب ولاهرم
وأن جارك جار للسموءل لا
يخشى الأعادي ولاتغتاله الذمم
هبنا جنينا ذنوبا لايكفرها
عذر فماذا جنى الأطفال والحرم

ومنها :

لكن رأيك أدناهم وأبعدني
فليت أنا بقدر الحب نقتسم
ولاسخطت بعادي اذ رضيت به
ولالجرح اذا أرضاكم ألم

تعلقت بحبال الشمس منك يدي
ثم انثنت وهي صفر ملؤها ندم

فراقك أساني وأسفني
ففي الجوانح نار منه تضطرم

فاسلم فما عشت لي فالدهر طوع يدي
وكلما نالني من بؤسه نعم

ومن شعره ايضا :

الق الخطوب اذا طرق
ـن بقلب محتسب صبور

فسينقضي زمن الهمو
م كما انقضى زمن السرور

فمن المحال دوام حا
ل في مدى العمر القصير

وتوفي بعد الثمانين وخمسمائة.
ومنهم اخوه ابو الحسن علي بن مرشد بن علي بن مقلد بن منقذ سيد بني منقذ ، ورد بغداد حاجا بعد العشرين وخمسمائة ، وقد ذكره السمعاني في تاريخه وأنشد له :

ودعت صبري ودمعي يوم فرقتكم
وما علمت بأن الدمع يدخر

وضل قلبي من صدري فعدت بلا
قلب فياويح ماآتي وماأذر

ولو علمت نخرت الصبر مبتغيا
اطفاء نار بقلبي منك تستعر

قال الأمير علي بن مرشد سمعت دربابا يصيح بدرب حبيب (٦٩) فقلت فيه :

ياطائرا لعبت أيدي الفراق به
مثلي فاصبح ذا هم وذا حزن
داني الاسى نازح الأوطان مغتربا
عن الأحبة مصفودا عن الوطن
بلا نديم ولاجار يسر به
ولا حميم ولادار ولاسكن
لكن نطقت فزال الهم عنك ولي
هم يقلقل احشائي ويخرسني
وكل من باح بالشكوى استراح ومن
أخفى الجوى بث عنه شاهد البدن
ارقت عيني بذوح لست افهمه
مع مابقلبي من وجد يؤرقني
ومابكيت ولي دمع غواربه
اذا ارتمت منه لم تنشق بالسفن

قال : وكتب الى صديق له :

مافهمت مع متحدث متشاغلا
الا رأيتك خاطرا في خاطري
ولو استطعت لزرت ارضك ماشيا
بسواد قلبي او باسود ناظري

وكتب الى أخيه مؤيد الدولة أسامة وهو بالموصل :

الا هل لمحزون تذكر الفه
فحن وأبدى وجده من يعينه
وعيشا مضى بالرغم اذ نحن جيرة
ترف على روض الوصال غصونه
لدى منزل كان السرور قرينكم
به فتولى إذ تولى قرينه

فلو أعشبت من فيض دمعي محوله
لما رضيت عن دمع عيني جفونه

قال وانشدني له ابن اخيه الامير مرهف بن اسامة

لاشكرن الذوى والعيس اذ قصدت
بي معدن الجود والاحسان والكرم
فسرت في وطني اذ سرت من وطني
فمن رأى صحة جاءت من السقم
وقد ندمت على عمر مضى اسفا
اذ لم اكن لك جارا فيه في القدم
فاسلم ولازلت محروس العلا ابدا
مالاحت الشهب في داج من الظلم

وقال اخوه اسامه بن مرشد : ونقلت من خط اخي عز الدولة أبي الحسن علي بن مرشد من شعره ، وكان استشهد رحمه الله على غزة في شهر رمضان سنة خمس واربعين وخمسمائة في حرب الفرنج لعنهم الله ، قبل ان يكمل من شعره وكان تقنطر به فرسه على باب غزة ، واستعلى الفرنج على اصحابه فانكشفوا عنه، فقتل وبقي في المعركة وانشد له اشعارا منها قوله في مرض طال به :

ظننت وظن الالمعي مصدق
بأن سقام المرء سجن حمامه
فان لم يكن موت صريح فانه
عذاب تمل النفس طول مقامه
وكم يلبث المسجون في قبضة الاذى
يجرب فيه الموت غرب حسامه

وانشد له قوله عند رحيله عن بغداد الى الحجاز :

ترحلت عن بغداد لاكارها لها
وفي القلب منها لوعة وحريق
فسقيا لأيام تقضيت بربعها
اذا العيش غض والزمان انيق
باخوان صدق ليس فيهم مشاقق
وكلهم حان علي شفيق

وأنشد له ايضا

ولما أعارتني الذوى منك نظرة
أحب الى قلبي من البارد العذب
تعقبها البين المشت فليتنا
بقينا على تأميلنا لذة القرب

وأنشد له :

ليت شعري علام صدك عنا
بعد ماكنت تدعي الأشواقا
لاتجار الزمان سبقا الى الهجـ
ـر فما زال صرفه سباقا
أنت غر بغدره فلهذا
قد تعجلت بالصدود الفراقا

وأنشد له :

بني أبي أن عدا دهر ففرقنا
فهم نفسي بكم ماعشت مجتمع
هل تعلمون الذي في النفس من أسف
عليكم وحنين ليس ينقطع

obeikandl.com

نزحتم أدمعي حتى لقد محلت
جفون عيني ومات اليأس والطمع
وان دهرا رمى عن جيده دررا
امثالكم لزمان عاطل ضرع

ومنهم جده سديد الملك أبو الحسن علي بن مقلد بن منقذ ، وكان من شرطه أن يقدم على بنيه ، قال : هو جد الجماعة ، موفور الطاعة ، أحكم أساس مجده وشادها ، وفضل أمراء ديار بكر والشام وسادها ، وقال ابو يعلى حمزة بن أسد :في سنة أربع وسبعين وأربعمائة في رجب ملك الأمير أبو الحسن علي بن المقلد بن منقذ حصن شيزر ، من الأسقف الذي كان فيه بمال بذله له ، وأرغبه فيه الى أن حصل في يده ، وشرع في عمارته وتحصينه والمصافعة عنه الى أن تمكنت حاله فيه ، وقويت نفسه في حمايته والمدافعة (٧٠) عنه .

والأمير سديد الملك ، هو ممدوح فحول الشعراء ، والذي امتدحه ابن حيوس بقصيدته التي أولها ـ وكتبها اليه من طرابلس وهو بحلب :

أما الفراق فقد عاصيته فأبى
وطالت الحرب الا أنه غلبا
أراني البين لما حم عن قدر
وداعنا كل جد بعده لعبا(٧١)

قال : وسألت ابن ابنه الأمير اسامة بن مرشد بن علي عن وفاة جده فقال : مات سنة خمس وسبعين وأربعمائة .

قال : وأنشدني مجد العرب العامري بأصبهان قال :انشدني الأمير أبو سلامة مرشد لأبيه الأمير ابي الحسن علي بن مقلد في غلام له ضربه ، وقد أبدع في هذا المعنى وأغرب :

اسطو عليه وقلبي لو تمكن من
كفي غلها غيظا الى عنقي
واستعبر اذا عاينته حنقا
وأين ذل الهوى من عزة الحنق

قال وأنشدني له ايضا :

ماذا النجيع بوجنتيك وليس من
شرط الأنوف على الخدود رعاف
ألحاظنا جرحتك حين تعرضت
لك أم أديمك جوهر شفاف

وقرأت له في مجموع :

اذا ذكرت أياديك التي سلفت
مع سوء فعلى وزلاتي ومجترمي
أكاد أقتل نفسي ثم يمنعني
علمي بأنك مجبول على الكرم

وله ايضا :

ومن كان يرضى بذل في ولايته
من خوف عزل فاني لست بالراضي
قالوا فتوكب أحيانا فقلت لهم
تحت الصليب(٧٢) ولافي موضع القاضي

وله ايضا :

ولاتعجلوا بالهجر ان الذوى
تحمل عنك منة الهجر

وظاهرونا بوفاة فقد
اغناكم البين عن الهجر

وله ايضا :

القى المنية في درعين قد نسجا
من المنية لامن نسج داوود

ان الذي صور الاشياء صورني
نارا من البأس في بحر من الجود

وهذان البيتان يرويان لعبد المؤمن ملك المغرب ، ولسديد الملك من مجموع اسامة :

كيف السلو وحب من هو قاتلي
ادنى الي من الوريد الاقرب
اني لاعمل فكرتي في سلوة
عنه فيظهر في ذل المذنب

وله ايضا :

بكرت تنظر شيبي
وثيابي يوم عيد
ثم قالت لي بهزء
ياخليعا في جديد
لاتغالطني فمات-
-صلح الا للصدود

قال العماد انشدت هذه الابيات والقطع جميعها الامير مؤيد الدولة اسامة في سنة اثنتين وسبعين : فأذكر أن يكون لجده سوى البيتين اللذين أولهما :

لاتعجلوا بالهجر ان النوى
وأذشدني لجده وكان كتب بها الى القاضي جلال الملك أبي الحسن علي بن عمار صاحب طرابلس :

أحبابنا لو لقيتم في مقامكم
من الصبابة مالاقيت في ظعني
لأصبح البحر من أنفاسكم يبسا
كالبر من أدمعي يذشق بالسفن

ومنهم الأمير أبو سلامة مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ والد اسامة ، وولد المقدم ذكره ، له البيت القديم والفضل العميم من فروع الأملاك الفارعي الافلاك .

قال السمعاني في تاريخه : رأيت مصحفا بخطه كتبه بماء الذهب على الطاق الصوري ، مارأيت ولاأظن ان الرائين رأوا مثله ، فقد جمع الى فضائله حسن خطه ، وتقدم بحسن تدبيره على رهطه ، واسن وعمر ، وله أولاد نجباء أمجاد كرماء أجواد.وكان مولده سنة ستين وأربعمائة ، ومات بشيزر سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة فيما حكاه ولده أسامة للسمعاني ، وذكره مجد العرب أبو فراس العامري ، وقال : كنت مقيما مدة بشيزر في كنفهم ، حاظيا برفدهم ، ساميا بشرفهم ، وأثنى على خلفهم وترحم على سلفهم ، فقال : وكان الأمير حينئذ بقلعة شيزر أخوه أبو العساكر سلطان ، وهو ممدوحي الذي حباني الأكرام والاحسان ، والأمير مرشد يقربني ويكرمني ، وقال في أبياتا منها :

لئن ذسي امرؤ عهدا فاني
لعهد أبي الفوارس غير ناس
وماعاش الأمير أبو فراس
فما مات الأمير أبو فراس

كنية العامري أبو فراس ، وأبو فراس الآخر هو أبو فراس بن حمدان ، وكان العامري يتبجح بالبيتين .

وذكر السمعاني في تاريخه : انشدني ولده أبو عبد الله محمد بن مرشد بن علي بن مقلد بن منقذ من حفظه ، عند القبة قال : وأنا قائم أكتب ، وهو وغلمانه على الخيل ، قال : أنشدني والدي مرشد ابن علي لنفسه بشيزر :

ظلوم أبت في الظلم الا التماديا
وفي الصد والهجران الا تناهيا
شكت هجرنا والذنب في ذاك ذنبها
فيا عجبا من ظالم جاء شاكيا
وطاوعت الواشين في وطالما
عصيت عذولا في هواها وواشيا
ومال بها تيه الجمال الى العلا
وهيهات أن أمسي لها الدهر قاليا
ولاناسي ما استودعت من عهودها
وان هي ابدت جفوة وتناسيا

ومنها في العتاب :

وقلت أخي يرعى بني وأسرتي
ويحفظ فيهم عهدتي وذماميا
ويجزيهم مالم اكلفه فعله
لنفسي فقد اعددته من تراثيا
فاصبحت صفر الكف مما رجوته
ارى اليأس قد غطى سبيل رجائيا
فما لك لما إن حنى الدهر صعدتي
وثلم مني صارما كان ماضيا

تذكرت حتى صار برك قسوة
وقربك منهم جفوة وتناسيا
على أنني ماحلت عما عهدته
ولاغيرت هذي الشؤون ودانيا
فلا زعزعتك الحادثات فانني
أراك يميني والأنام شماليا

قال وقرأت في بعض الكتب كلمة نظمها الخطيب أبو الفضل يحيى ابن سلامة الحصكفي ، في جواب رسالة وصلته من الامير علي بن مرشد من شيزر وهي :

حوى مرشد وابناه غر المناقب
وحلوا من العلياء اعلى المراتب
ذوائب مجد ماعلمت بأنهم
من العلم ايضا في الذرى والذوائب
اتت من علي روضة جاد روضها
سحائب فضل لاكجود السحائب
بأبيات شعر أفحمت كل شاعر
وآيات نثر أعجبت كل خاطب
وغر معان أعجزت كل عالم
واسطر خط أرعشت كل كاتب
ربيع بورد وافد لمطالع
وربع لوفد وارد بمطالب
وخود رمت بالسحر عن قوس حاجب
لها في العلى فخر على قوس حاجب(٧٣)
فلو قطبت لما قطبت لها
وجوه لا غطت على حكم شارب .

ومنهم حميد بن مالك بن مغيث بن نصر بن منقذ بن محمد بن منقذ ابن نصر بن هـاشم ، أبـو الغنائم ، الملقـب بمـكين الدولة ، ولد

بشيزر في تاسع جمادى الآخرة سنة احدى وتسعين وأربعمائة ، ونشأ بها ، وانتقل الى دمشق ، فسكنها مدة طويلة ، واكتتب في العسكر ، وكان يحفظ القرآن ، وله شعر جيد ، وفيه شجاعة وعفاف ، ومات في نصف شعبان سنة أربع ستين وخمسمائة بحلب. ومن شعره:

مابعد جاق للمرتاد منزلة
ولا كسكانها في الأرض سكان
فكلها لمجال الطرف منتزه
وكلهم لصروف الدهر أقران
وهم وأن بعدوا عني بنسبتهم
اذا بلوتهم بالود اخوان

وقال في أخيه يحيى :

بالشام لي حدث وجدت بفقده
وجدا يكاد القلب منه يذوب
فيه من البأس المهيب صواعق
تخشى ومن ماء السماء قليب
فارقت حتى حسن صبري بعده
وهجرت حتى الذوم وهو حبيب

قال الحافظ علي بن الحسن بن هبه الله ، وأنشدنا لنفسه :

يذكرني بحبي الرماح شوارعا
وبيض المواضي جردت للوقائع
وأقسم مارؤياه في العين بهجة
بأحسن من أوصافه في المسامع

قال وأنشد لنفسه :

وسلافة ازرى احمرار شعاعها
بالورد والوجنات والياقوت

جاءت مع الساقي تنير بكأسها
فكأنها اللاهوت في الناسوت (٧٤)

قال وأنشدنا لنفسه في صديق له يعاتبه

أدنو بودي وحظي منك يبعدني
هذا لعمرك عين الغبن والغبن
وان توخيتني يوما بلائمة
ورجعت باللوم ابقاء على الزمن
وحسن ظني موقوف عليك فهل
غيرت بالظن بي عن رأيك الحسن

ومنهم الأمير شرف الدين أبو الفضل اسماعيل بن أبي العساكر سلطان بن علي بن منقذ ، كان أبوه عم مؤيد الدولة اسامة بن مرشد أمير شيزر ، وكان شابا فاضلا ، سكن لما أخذت منهم شيزر بدمشق، ومات بها سنة احدى وستين وخمسمائة .

قال العماد وسمعت من شعره :

ومهفهف كتب الجمال بخده
سطرا يحير ناظر المتأمل
بالغت في استخراجه فوجدته
لارأي الا رأي أهل الموصل

وذكره ابن عمه الأمير مرهف بن أسامة ، وأثنى عليه وأنشدني له اشعارا منها بيتان في النحل والزنبور وهما :

ومغردين ترنما في مجلس
فنفاهما لاذاهما الأقوام
هذا يجود بما يجود بعكسه
هذا فيحمد ذا فذاك يذام

يعني العسل من النحل وعكسه اللسع من الزنبـور ، وأنشـدني ايضا له :

سقيت وكأس الهوى علا على نهل
فلا تزدني كأس اللوم والعذل
نأى الحبيب فبي من نأيه حرق
لو لامست جبلا هدت قوى الجبل

ولو تطلبت سلوانا لزدت هوى
وقد يزيد رسوبا نهضة الوحل
عفت رسومي فعج نحوي لتندبي
فالصب غب زيال الحب كالطلل
صحوت من قهوة تنفي الهموم بها
لكنني ثمل من طرفه الثمل
أصبر النفس عنه وهي قائلة
مالي بعانية الأشواق من قبل
كم ميتة وحياة ذقت طعمهما
مذ ذقت طعم النوى لليأس والأمل
والنفس إن خاطرت في غمر وألت
منها وأن خاطرت في الوجد لم تئل
لها دروع تقيها من سهام يد
فهل دروع تقيها اسهم المقل
فانظر اليه تر الأقمار في قمر
وانظر الي تر العشاق في رجل

بأي امر سانجو من هوى رشأ
في جفنه سحر هاروت وسيف علي
إذا رمى طرفه باللحظ قال له
قلبي أعد لارماك الله بالشلل
أمن بني الروم ذا الرامي الذي فتكت
سهامه بالورى أم من بني ثعل
إن خفت روعة هجران الحبيب فقد
آمنت في حبه من روعة العذل

ومنهم الأمير أبو الفتح يحيى بن سلطان بن منقذ لقبه فخر الدولة ذكره الأمير مرهف بن اسامة وذكر انه قتل على بعلبك في سنة أربعين وخمسمائة • وأنشدني من شعره ما كتبه الى ابيه عز الدين يطلب منه رمحا :

يا خير قوم لم يزل مجدهم
في صفحات الدهر مسطورا
عبدك يبغي اسمرا ذكره
مازال بين الناس مذكورا
مسدد والجور من شأنه
أن نال وترا صار موتورا
فان تفضلت به عاد عن
صدور اعدائك مكسورا

ومنهم الأمير عز الدولة ابو المرهف نصر بن علي بن مقلد بن نصر ابن منقذ عم مؤيد الدولة أسامة

قال العماد ، كنا حضرنا عند الملك الناصر ليلة بدمشق سنة احدى وسبعين والأمير مؤيد الدولة حاضر ، وتناشدنا ملح القصائد ، ونشدنا ضالة الفوائد ، وجرى حديث اقتضى انشاد الأمير اسامة بيتين لبعضهم في المشط الأسود ، والمشط

الأبيض ، وهما لأبي الحسن احمد بن محمد بن الدويدة المغربي ، كان في زمن بني صالح .

كنت استعمل السواد ، من الاهـ
شاط والشعر في سواد الدياجي
أتلقى مثلاث بمثل فلما
صار عاجا سرحته بالعاج

ثم قال الأمير ، وقد أخذ هذا المعنى عمي نصر وعكسه وقال :

كنت استعمل البياض من الاهـ
شاط عجبا بلمتي وشبابي
فاتخذت السواد في حالة الشيـ
ـب سلوا عن الصبى بالتصابي

وقال لي الأمير اسامة: كان عمي نصر قد اخرج حجة عن والدته ، فرآها في النوم كأنها تنشده فأتيته والأبيات على حفظه وهي :

جزيت من ولد بر بصالحة
فقد كسبت ثوابا آخر الزمن
وقد حججت الى البيت الحرام وقد
اتيته زائرا يا خير محتضن
فلا تنلك يد الأيام ما طلعت
شمس وما صدحت ورقاء في فنن

وكان نصر هذا صاحب قلعة شيزر بعد والده سديد الملك ، وكان كريما ذا أريحية ، حدثني الأمير مرهف بن اسامة بحضرة والده ، قال كتب القاضي ابو مسلم وادع المعري الى الأمير نصر في نكبة نالته :

يا نصر يا بن الاكرمين ومن
شفع التلاد بطارف الفخر
هذا كتاب من اخي ثقة
يشكو اليك ذوائب الدهر
فامنن بما عودت من حسن
هذا أوان الذفع والضر

فكتب اليه نصر انه لم يحضرني سوى ما عندك مودع ، وهو ستة آلاف دينار ، فاصرفها في بعض مصالحك واعذر ، وذكر ان نصرا كان برا بوالده سديد الملك ، فقال فيه سديد الملك :

جزى الله نصرا خيرا ما جزيت به
رجال قضوا فرض العلاء ونفلوا
هو الولد البر العطوف وان رمى
به حادث فهو الحمام المعجل
يفديك يا نصر رجال محلهم
من المجد والاحسان إن يقولوا
سأثنى بما اوليت بالموقف الذي
تقر به الأقدام او تتزلزل
والقاك يوم الحشر ابيض ناصعا
وأشكر عند الله ما كنت تفعل

وتوفي نصر بن علي في جمادى الآخرة سنة احدى وتسعين واربعمائة بشيزر .

ومنهم الأمير عضد الدين أبو الفوارس مرهف بن اسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ.

وقال مؤلف الكتاب: فارقته في جمادى الأولى سنة اثنتي عشرة وستمائة بالقاهرة يحيى ، ولقيته بها ، وهو شيخ ظريف واسع

الخلق شائع الكرم ، جماعة للكتب ، وحضرت داره ، وا شترى مني كتبا ، وحدثني أن عنده من الكتب ما لايعلم مقداره ، إلا أنه ذكر لي أنه باع منها أربعة آلاف مجلد في نكبة لحقته فلم يؤثر فيها ، وسألته عن مولده فقال ولدت سنة عشرين وخمسمائة ، فيكون عمره الى وقتنا هذا اثنتين وتسعين سنة ، وكان قد اقعد لايقدر على الحركة ، إلا أنه صحيح العقل والذهن والفطنة والبصر ، يقرأ الخط الدقيق كقراءة الشبان ، الا ان سمعه فيه ثقل ، وكان ذلك يمنعني من مكاثرته ومذاكرته ، وكان السلطان صلاح الدين رحمه الله قد اقطعه ضياعا بمصر ، فهو يصرفها في مصالحه ، وأجراه الملك العادل أخو صلاح الدين على ذلك ، وكان الملك الكامل بن العادل يحترمه ويعرف له حقه ، وأنشدني شيئا من شعره وشعر اهله لم يحضرني منه في هذا الوقت ما اورده ، وذكر له العماد في كتاب الخريدة ما ذكر انه سمعه منه وهو :

سمحت بروحي في رضاك ولم يكن
ليعجزني لولا رضاك المذاهب
وهانت لجراك العظائم كلها
علي وقد جلت لدي الذوائب
فكان ثوابي عن ولائي لحبتكم
رمتني به منك الظنون الكواذب
فمهلا فلي في الأرض عن منزل العلى
مسار اذا اخرجتني ومسارب
وان كنت ترجو طاعتي باهانتي
وقسري فان الرأي عنك لعازب

وأنشدني ايضا لنفسه قال : وهو حاضر عند والده ، وذكر انه مما كتبه الى والده:

رحلتم وقلبي بالولاء مشرق
لديكم وجسمي للعناء مغرب

فهذا سعيد بالدنو منعم
وهذا شقي بالبعاد معذب
وما ادعي شوقا فسحب مدامعي
يترجم عن شوقي اليكم ويعرب
ووالله ما اخترت التأخر عنكم
ولكن قضاء الله ما منه مهرب

ومات الأمير عضد الدين بن مرهف في ثاني صفر سنة ثلاث عشرة وستمائة .